التفسير الصوتي لبعض مظاهر اللحن في العربية المعاصرة

الدكتور

عمر عبد المعطي أبو العينين

أستاذ العلوم اللغوية المساعد

كلية التربية – جامعة المنصورة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى وآله أجمعين، وبعد.

اللحن بمعنى الخطأ في اللغة والخروج على قياسها وصحيح سماعها ظاهرة قديمة في اللغة العربية ظهرت منذ الجاهلية وصدر الإسلام. وشهدت موجات من الانتشار، وحالات من الانحسار. كان ذلك يحدث انعكاساً لاعتبارات متعددة تؤثر فيها سلبا أو إيجاباً، ولذلك وجدنا المجتمع العربى منذ الجاهلية وصدر الإسلام يقف لها بالمرصاد. كثيرة هى الروايات التى تخبرنا كيف كان الرواة إلى جانب اللغويين والنحاة يتتبعون أخطاء الشعراء أو وجهاء القوم ويأخذونهم بها، وهو ما انعكس بدوره في الحرص الشديد على توقّي اللحن وتحاشيه في مقابل إكبار وإجلال أولئك الذين يحظون بلغة سليمة فصيحة غير ملحونة، وهو الأمر الذى استمر إلى صدر الإسلام، حيث نرى التنفير من هذه الظاهرة وتحقير شأنها والاعتزاز بما يناقضها. وها هو النبى صلى الله عليه وسلم يحدث بفصاحته، ويذكر أصالتها في قومه وبيئته، وينفى اللحن عن نفسه وهذا ما نراه في الخبر الذى رواه أبو الطيب اللغوى في قوله ((بل قد رَوَيْنا من لفظ النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أنا من قريش، ونشأت في بنى سعد، فأنَّى لى اللحن))[١]. ويقول أبو بكر رضى الله عنه: لأن أقرأ فأُسْقِط أحبّ إلىّ من أن أقرأ فأَلحَن))[٢]. وهذا عبد الملك بن مروان يقول: (اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس والجدرى في الوجه)) وقيل له: ((لقد عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين. قال: شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن))[٣].

وهكذا كان الاهتمام بالتصدى لهذه الظاهرة بما يتناسب مع خطرها وضررها، غيرة على الدين واللغة وظل الحال بين صعود وهبوط في الاهتمام بمواجهة هذه الظاهرة إلى أن وصلنا إلى وقتنا الحالى حيث رأينا ظاهرة اللحن تتفاقم وتستشرى حتى غدت هما ثقيلا يثقل العقل والقلب جميعا.

وينذر بشر عظيم إن لم ننتبه إليه ونرده عن حياض العربية، فإن سلمت سلمنا وإلا كانت الأخرى – لاقدر الله – ومن هنا كان الدافع إلى هذا البحث الذى يحاول أن يقترب من هذه الآفة – اللحن – راصداً لبعض نماذج منها بحثا عن العلة التى أدت إليها علّنا بذلك نسهم ولو بجهد متواضع في رده أو تضييق دائرته، رغبة في الحفاظ على سلامة العربية وصحتها، إلى جانب تقريبها من أبنائها وحضّهم على العناية والحفاوة بها ما وسعهم الجهد. وأيضاً درأ لمظنة استحالة إتقان العربية واتخاذها لغة حياة كما هي لغة علم وحضارة ودين.

وقد اعتمدت في رصد هذه الظاهرة على المادة اللغوية المقروءة والمسموعة في العربية المعاصرة – في جمهورية مصر العربية – المادة المقروءة تتمثل في كتابات الكتاب والأدباء وأصحاب الأعمدة

١- مراتب النحويين–لأبى الطيب اللغوى – نهضة مصر – ط٢ – ٢٣، وبنو سعد المذكورون هنا هم بنو سعد بن بكر بن هوازن; أظآر النبى عليه السلام، واسترضع عندهم، وكان حاضنه منهم الحارث بن عبد العزى بن رفاعة، ومرضعه زوجه حليمة بنت عبد الله بن الحارث. (جمهرة أنساب العرب – لابن حزم – دار المعارف. ط. الخامسة – ٢٦٥).

٢- مراتب النحويين ٢٣

٣- العقد الفريد لابن عبد ربه – الذخائر ١١٢ – ٤٧٨/٢

والمقالات الثابتة في الصحف والمجلات. أما المادة المسموعة فقد تمثلت في البرامج المذاعة عبر الإذاعتين المرئية والمسموعة التي تستخدم اللغة العربية وسيلتها في هذه البرامج كالبرامج الإخبارية والثقافية والدينية والعلمية، إلى جانب الندوات والمؤتمرات العلمية.

ويهدف البحث إلى تقديم التفسير الصوتي لبعض مظاهر اللحن في النماذج التي نعرض لها من لغتنا المعاصرة، وذلك من خلال تعرف أسبابها وصولاً إلى تداركها ومحاولة علاجها، ومن ثم النظر في قبول ما يمكن قبوله من هذه الحالات حال موافقتها قياساً أو سماعاً عربياً صحيحاً، وطرح ما سوى ذلك بل التنبيه إليه والتحذير من الوقوع فيه. وبالتالي نحاول أن نحافظ على اللغة دونما تفريط يسمح بقبول كل ما عنَّ له صواباً أو خطأ، أو تضييق يحول بين اللغة ونموها وتطورها حينما يحول بيننا وبين بعض صور الاستخدام العربي الحديث الفصيح الصحيح- وإن قصرت عن أن تكون الأفصح- ولكنها في كل حالاتها عربية لا تتخلف عن الصواب اللغوي في إطار منظومة اللغة العربية وهي بذلك يمكن أن تكون عاملاً مهماً في أن تستمر اللغة في حركتها النشطة نحو النمو والتطور.

وقد قامت خطة البحث على تناول محاور ثلاثة هي:

- (اللحن): وفيه تم عرض معنى (اللحن) لغة واصطلاحاً، والمعنى المقصود في هذه الدراسة إلى جانب مناقشة كيف بدأ اللحن وكيف كان حتى انتهى إلينا الآن.

- (مقياس الفصاحة): حيث نعرض لرؤية القدماء في تحديد المستوى الصوابي المقبول والمرفوض الذي اتخذوه ومدى التزامهم إياه. وكذا رؤية المحدثين وموقفهم من المستوى الصوابي. والرأي الذي نراه في ذلك.

- (التحليل الصوتي للنماذج التي تمثل اللحن في العربية المعاصرة التي اخترناها للدراسة): ومن خلال هذا التحليل نقدم التفسير لكل حالة من الحالات بحثاً عن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الحالات اللحنية. ثم تأصيل كل حالة عن طريق مقارنتها بنظائرها في العربية بحثاً عن وجود مشترك فيما بينهما قد يسمح بقبول بعض الحالات أو الصور التي يمكن أن يكون لها نسب بالعربية الصحيحة بغض النظر عن كونها قد قصرت عن أن تكون الأفصح في بابها.

وأخيراً الخاتمة التي تضمنت أهم نتائج البحث. يليها قائمة المراجع.

والله ولي التوفيق إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ولله الحمد في الأولى والآخرة.

اللحن

يتناول هذا البحث التفسير الصوتي لبعض مظاهر اللحن في العربية المعاصرة وهو ما يستدعي بداية تحديد مفهوم (اللحن) المقصود في هذه الدراسة، وبخاصة إذا علمنا أن لكلمة (اللحن) عدة معان ودلالات. وهو ما أشار إليه صاحب اللسان فيما رواه عن ابن بري في قوله: "قال ابن بري وغيره للحن ستة معان الخطأ في الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعني".[١]

ولعله من المفيد أن نقف أمام كل معنى من هذه المعاني بشئ من الإيضاح وذلك على النحو الآتي:

١- اللحن بمعنى الغناء والتطريب: وفيه يقول ابن فارس: "إزالة للكلام عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان في الترنم".[٢] ومما يروي من شواهد هذا المعنى قول جهم بن خلف:

تَغنَّت عليه بلحنٍ لها يُهيج للصب ما قد مضى[٣]

ومنه أيضاً قول يزيد بن النعمان:

لقد تركت فؤادَك مُسْتَجَنّاً مطوّقةٌ على فنن تغنىّ

يميل بها وتركبُه بِلحْنٍ إذا ما عنَّ للمحزون أنّا[٤]

٢- اللحن بمعنى التعريض والإيماء: ومن شواهد هذا المعنى قول القتّال الكلابي:

ولقد لحَنْتُ لكم لكيما تفقهوا ووَحَيْتُ وَحْياً ليس بالمرتاب[٥]

ومنه كذلك قول مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى في جارية له:

منطقٌ صائبٌ وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحنا[٦]

٣- اللحن بمعنى اللغة أو اللهجة الخاصة: يقول الزمخشري: "يقال هذا ليس من لحني، ولا من لحن قومي، أي من نحوي وميلي الذي أميل إليه وأتكلم به، يعني لغته"(٧)

ومن شواهد هذا المعنى قول الأعرابية الكلبية:

وقومٌ لهم لَحْنٌ سوى لحنِ قومنا وشَكلٌ وبيتِ اللهِ لسنا نُشاكلُهْ[٨]

ومنه كذلك قول شريك عن أبى إسحق عن أبى ميسرة في تفسير (العرم) في قوله تعالى: (فأَرْسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ).[١] قال: العرم: المُسَنّاة بلحن اليمن، أى بلغة اليمن[٢]

١- لسان العرب لابن منظور (لحن).
٢- مقاييس اللغة لابن فارس- ط عيسى الحلبي. تحقيق عبد السلام هارون ١٣٦٦- ١٣٧١هـ- ٢٣٩/٥.
٣- الحيوان للجاحظ- مصطفى الحلبي ط٢ ١٩٦٥/م- ٣-١٩٩.
٤- الأمالي للقالي- دار الآفاق بيروت- ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م- ٦/١- واللسان (اللحن)
٥- الأضداد لابن الأنباري ٢٠٩- الآمالي٤/١- اللسان (لحن) برواية (لكيما تفهموا)
٦- البيان والتبين للجاحظ- مصطفى الحلبي ١٩٥٠م- ١٤٧/١- الملاحن لابن دريد- المطبعة السلفية- ٠،٧، عيون الأخبار لابن قتيبة- الهيئة العامة للكتاب ١٦٢/٢- العقد الفريد لابن عبد ربه- ت أحمد أمين وآخرين ٤٨٠/٢.
٧- أساس البلاغة للزمخشري- دار الكتب العلمية- بيروت- ط الأولى ١٩٩٨ (لحن).
٨- اللسان (لحن).

٤- اللحن بمعنى الفطنة والصواب: ومن ذلك ما جاء في أضداد ابن الأنبارى: ((وقال عمر بن عبد العزيز عجبت لمن لاحن الناس كيف لا يعرف جوامع الكلم. أراد بَلاحَن فَاَطَنَ. وقال أبو العالية كان ابن عباس يعلمنا لحن الكلام وقال لبيد:

مُتَعَوِّذ لَحِنٌ يُعيدُ بكفِّه قلمًا على عُسُبٍ ذَبَلْنَ وبانِ[٣]

٥- اللحن: أىَ معنى القَول وفحواه: وشاهده قوله تعالى: ((ولتعرفنهم في لحن القول))[٤] قال فيها صاحب اللسان: أى في ((فحواه ومعناه ومذهبه))[٥]

٦- اللحن بمعنى الخطأ في اللغة: يقول الزمخشرى: ((لَحَن في كلامه: إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضعه إلى الإلغاز)).[٦] ومن شواهد هذا المعنى قول يحيى بن نوفل الحميرى في هجاء خالد بن عبد الله القسرى والى العراق (١٢٠-١٠٥هـ):

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق والخطب[٧]

ومنه قول رؤبة بن العجاج في أرجوزته التى مدح بها بلال بن أبى بردة:

فزتُ بقدْحَىْ معرِبٍ لم يَلحَنِ.[٨]

وبعد ماتقدم أقرر أن معنى اللحن المقصود في هذه الدراسة هو دلالة اللحن على الخطأ في اللغة سواء أكان هذا الخطأ في أصوات اللغة أو مفرداتها أو تراكيبها أو معانيها.

يقول ابن فارس: ((فأما اللحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية، ويقال: لَحَن لَحْنا، وهذا عندنا من الكلام المولد، لأن اللحن محدث، لم يكن في العرب العاربة، الذين تكلموا بطباعهم السليمة)).[٩]

أمَّامتى انتقلت دلالة لفظ اللحن للدلالة على معنى الخطأ في اللغة أو الخطأ في الكلام فهو ما نناقشه فيما يلى:

يقول يوهان فك: "وهذا اللفظ القديم: اللحن، الذى يطلقه علماء اللغة والنحو اصطلاحا على الخطأ في اللغة، إنما اكتسب هذا المدلول نتيجة لاتفاق عرفى على تغيير معناه الأصلي في وقت متأخر نسبيا))[١٠] ويضيف: ((هذا ولا يزال ينقصنا كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ

١- سورة سبأ: ١٦

٢- الأضداد ٢٠٩ – الأمالى ٥/١ – اللسان (لحن). والمسناة:حاجز يبنى للسيل ليمسك الماء، وقد سمى كذلك لأن فيه مفاتيح تسهِّل خروج الماء منها بالقدر المحتاج إليه.

٣- الأضداد ٢٠٩ – الأمالى ٥/١. والعسب جمع عسيب، وهى جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

٤- سورة محمد ٣٠

٥- اللسان (لحن) – الأمالى ٤/١ – الأضداد ٢٠٨

٦- أساس البلاغة (لحن)

٧- البيان والتبيين ٢١٦/٢.

٨- ديوان رؤبة ١٦٤

٩- مقاييس اللغة ٢٣٩/٥

١٠- العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – يوهان فك ٢٤٣

في الكلام. وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق مابين التعبير الصحيح والتعبير الملحون. وكثير من هؤلاء لم يكونوا يستطيعون إخراج حروف الحلق والإطباق بالدقة المعروفة في العربية من مخارجها، فاستعاضوا عنها بحروف أخف على ألسنتهم وأسهل على طباعهم. وكان من أثر هذا إلى جانب الثراء العظيم في ألفاظ العربية، أن نشأ من التحريف واختلاط الكلمات مالا مناص عنه في التفاهم العادى)).[١] وانتهى إلى القول "وقد كانت نتائج ذلك ما لاحظناه....، وما قررناه من قيام مبدأ "تنقية اللغة" في أواخر القرن الأول للهجرة (السابع الميلادي). ومن آثار نشأة ذلك المبدأ المتزمت إطلاق لفظ اللحن على الخطأ اللغوي"[٢]. في القول السابق ذهب الباحث إلى القول إن إطلاق علماء اللغة والنحو لفظ (اللحن) اصطلاحا على الخطأ في اللغة، إنما جاء في وقت متأخر نسبيا. ورجح أن يكون ذلك في أواخر القرن الأول الهجرى السابع الميلادى. مع ما أشار إليه ابن فارس قبله من القول إن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة. وهذا الرأى لا نستطيع أن نسايره أو أن نتفق معه للأسباب الآتية:

- ما ذكره أبو الطيب اللغوى في مراتب النحويين من قوله ((بل قد روينا من لفظ النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أنا من قريش، ونشأت في بنى سعد، فأنَّى لى اللحن))[٣] فنفى اللحن عنه صلى الله عليه وسلم يدل صراحة على أن اللحن كان ظاهرة معروفة وأن بعض سادة العرب كانوا يلحنون، لذلك رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحدِّث بفصاحته وأنَّه غير هؤلاء الذين يصدر اللحن عنهم.

  ويقول أبو الطيب كذلك ((واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعرابُ، لأن اللحن ظهر في كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم، ودليله توجيه الرسول إلى مَنْ معه حين لحن رجل بحضرته بأن يرشدوه إلى الصواب عوضا عن لحنه.
- كذلك لم يكن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام بعيدين عن الاتهام باللحن وهناك العديد من الشواهد التى تدل على ذلك ومنها مايرويه ابن قتيبة في الشعر والشعراء يقول[٤] ((كان أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الإقواء هو اختلاف الإعراب في القوافى وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة، كقول النابغة في قصيدته التى أولها:

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مغتدِ عجلان ذا زاد وغيرَ مزوَّدِ

١- العربية – يوهان ٢٥٤.
٢ - السابق نفسه
٣- مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ٢٣
٤- الشعر والشعراء لابن قتيبة – ت. أحمد محمد شاكر – دار التراث العربى – ١٠١/١

وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ[١]

- ولدينا مما أخذ على الشعراء من خطئهم في الإعراب قول لبيد.[٢]

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلقْ بعض النفوس حمامها.

يريد: أترك المكان الذى لا أرضاه إلى أن أموت، ولا أزال أفعل ذلك.

و(أوْ) هاهنا بمنزلة (حتى).

وقول امرئ القيس:[٣]

فاليوم أشربْ غير مستحقبٍ إثما من الله ولا واغل

يذكرون هذا البيت ويحتجون به في تسكين المتحرك لاجتماع الحركات.

ويحدّث ابن قتيبة عن سيبويه قائلا: ((وقد رأيت سيبويه يذكر بيتا يحتج به في نسق الاسم المنصوب على المخفوض، على المعنى لاعلى اللفظ، وهو قول الشاعر:[٤]

مُعَاوِيَ إننا بَشَرٌ فأسْجِحْ فلسنا بالجبال ولا الحديدا.

قال: كأنه أراد: لسنا الجبال وَلا الحديدا، فرد الحديد على المعنى قبل دخول الباء. وقد غلط على الشاعر، لأن هذا الشعر كله مخفوض.

- ومن ذلك أيضا قول الفراء:[٥]

فقلت ادْعِي وأدْعُ فإنَّ أندى لصوت أن ينادى داعيان

إنما هو: فقلت ادعى وأدعوَ إنّ أندى.

- ويحتج سيبويه أيضا بقول الهذلى في كتابه:[٦]

يَبيتُ على مَعَارِيَ فاخرات بهن مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِبَاطِ

وليست هاهنا ضرورة فيحتاج الشاعر إلى أن يترك صَرفَ ((مَعَارٍ)) ولوقال:

يَبيتُ على معارٍ فاخراتٍ *. كان الشعر موزونا والإعراب صحيحا.

والشواهد التى قدمناها هنا نزر يسير. وهو ما يؤكد أن اللحن كان موجوداً بين قبائل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. ومن ثم لا يستقيم القول إن استعمال (اللحن) اصطلاحا بمعنى الخطأ إنما تأخر إلى نهاية القرن الأول الهجرى. أو أنه لم يكن في العرب العاربة فهو قول

١- الشعر والشعراء ١٧٩/١

٢- السابق ١٠٤/١

٣- السابق

٤- الشاعر هو عقبة بن هبيرة الأسدى، شاعر جاهلي إسلامى. الشعر والشعراء ١٠٥/١

٥ - الشعر والشعراء ١٠٦/١

٦ - الشعر والشعراء ١٠٥/١ والشاعر هو المتنخل الهذلى وهو من شواهد سيبويه. الكتاب ٣١٣/٣. و(المعارى) جمع (معرى) وهى الفرش. و(الملوب) الذى أُجرى عليه الملاب وهو ضرب من الطيب، وشبهه في حمرته بدم العباط وهى التى نحرت لغير علة واحدها عبط وعبيطة.

تبطله الشواهد وتنبئ بغيره ; ذلك أن قدم الظاهرة ورصدها والتنفير منها يستدعى وجود اللفظ مبكرا ليكون لافتا إلى هذه الحالة المعيبة في استعمال اللغة وهنا رب إشارة خير من عبارة بمعنى أن استعمال لفظ يدل على الحالة ويمسها مساً خفيفا بالتعريض أو بالإيحاء بما يراد أولى من التعبير الصارم (أخطأت). ولا ننسى أن للعرب مذاهبهم في ذلك فالمفازة بجانب البيداء. والسليم بجانب اللديغ، وهكذا والمعنى مع ذلك محدد قاطع الدلالة بسياق الحال الذى ينتظمه. فلا بأس إذن من وجود لفظ اللحن بمعنى الخطأ منذ البدايات الأولى لظهور اللحن أو بعدها بمدى زمني قصير، دون حاجة تدعو إلى الانتظار قرابة قرن أو يزيد حتى نستعمل اللفظ بمعناه الاصطلاحى: (الخطأ) فليس لذلك ما يبرره.

- وإذا ما تحولنا لمناقشة ظواهر اللحن التى ظهرت في كلام الموالى والمتعربين وجدنا أن معظم الروايات التى صورت هذا الانحراف في أداء أصوات العربية أو صيغها أو تراكيبها إنما كان من قبل هؤلاء الموالى، ومن ذلك ما يرويه ابن قتيبة:[١] ((وقال فيل مولى زياد لزياد:
((أهدوا لنا همار وهش)) وهو يريد ((حمار وحش))
ومثله: ((قال الحجاج لرجل من العجم نَخَّاس أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ فقال: ((شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مداينها، وكما تجئ تكون)). فقال الحجاج ما تقول؟ ففسروا له ذلك فضحك وكان لا يضحك. يقول: شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها.[٢] أما العرب فيبدو أن مظاهر اللحن لديهم إنما تمثل في الإعراب خاصة، وهو ما أشار إليه أبو الطيب اللغوى في قوله: ((واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعرابُ))[٣]. وهو ما ذهب إليه الزُّبيدى كذلك في طبقاته حيث يقول: ((ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضى جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة والعربية، واستبان منه في الإعراب الذى هو حلْيها، والموضِّح لمعانيها)).[٤]
- ويروى الجاحظ: ((قالوا: وأول لحن سُمِع بالبادية: هذه عصاتى، وأول لحن سمع بالعراق حَىِّ على الفلاح))[٥] وشبيه بهذا قول ابن السِّكيت: ((وزعم الفراء أن أول لحن سمع بالعراق: هذه عصاتى))[٦]. وقريب من ذلك مارواه أبو الطيب اللغوى في قوله: ((لم يزل أبو الأسود ضنينا

١- عيون الأخبار – لابن قتيبة – الهيئة العامة للكتاب ١٩٢٥- ١٥٩/١
٢- السابق ١٦٠/١
٣- مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى٢٣
٤ - طبقات النحويين واللغويين للزُّبيدى – دار المعارف.ط. الثانية – ١١.
٥ - البيان والتبيين ٢١٩/٢. وصواب الكلمتين هذه عصايَ (بفتح الياء)، و(حَىَّ) بفتح الياء وتشديدها.
٦ - إصلاح المنطق لابن السّكيت ٢٩٧

بما سمع عن علىّ عليه السلام حتى قال له زياد: قد فسدت ألسنة الناس، وذلك أنهما سمعا رجلا يقول: ((سقطت عصاتى)) فدافعه أبو الأسود)).[1] وهذه الرواية التى حكاها ابن السكيت وأبو الطيب اللغوى والجاحظ حول أن أول لحن سمع بالبادية كان (هذه عصاتى) وبفرض صحتها فإنها لا تحمل دليلا على أن هذا هو (أول) لحن قد سمع لأسباب نجملها في الآتى:

- الخبر الذى يرويه أبو الطيب في مراتب النحويين: ((واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعرابُ.لأن اللحن ظهر في كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم، فقد رَوَيْنا أن رجلا لحن بحضرته فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضل)) فالنص واضح الدلالة في كون اللحن قد ظهر من ((عهد)) النبى صلى الله عليه وسلم.
- ماجاء في رواية الجاحظ وابن السكيت وأبى الطيب اللغوى من أن أول ما سمع من اللحن (هذه عصاتى) أو (سقطت عصاتى) على اختلاف الرواية، و(حىٍّ) على الفلاح التى زيدت في رواية الجاحظ، مع التكرار فإنها لا تقطع بأنها (أول) ما سمع من اللحن فيما سمعه أبو الأسود(ت٦٩) تبعا لرواية أبى الطيب، أو فيما رواه ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) أو الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فهذا يعُد مرحلة تالية لبدايات اللحن الأولى والتى ظهرت منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم بل ومنذ الجاهلية على ماسبق ورأيناه في المآخذ التى أُخذ بها شعراء في الجاهلية وصدر الإسلام.

ونلحظ أيضا أن اللحن هنا في هذه الرواية لم يكن على المجمع عليه والمشهور الذى أشارت إليه الروايات المتعددة في أن أول لحن العرب كان في (الإعراب) وهو ماسبق وتأكد في الشواهد الشعرية التى سبق ذكرها. بينما هذه الكلمة التى يشار إليها باعتبارها (أول) ما سمع من اللحن قد جاوزت مسألة الإعراب فالخطأ في بنية الكلمة وليس في إعرابها. وهو مايؤدى بنا إلى مناقشة حقيقة ما شاع من أن اللحن الذى وقع فيه العرب إنما كان في الإعراب في مقابل لحن الموالى والمستعربين في الأصوات وأدائها والحق إن قصر أن يكون أول ما وقع في كلام العرب من اللحن (الإعراب) وحده أمر مفهوم ومقبول ولكن هذا لا يمنع أن يجاوره ويسايره أيضا بعض الأخطاء الأخرى في الأصوات وطريقة نطقها أو في عدم فهم فحوى الخطاب وهو ما يمكن أن ندلل عليه بشواهد عديدة منها: ((قيل لأعرابى: أتهمز إسرابيلَ؟ قال إنى إذا لرجل سوء، قيل له أتجُر فلسطين؟ قال إنى إذًا لقوى.

وقيل لآخر: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهرَّة تهمزها.[2]

---

١ - مراتب النحويين٢٦

٢ - عيون الأخبار ١٥٧/١

وفى المزهر: ((قال أبو بكر بن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى قال: اختلف رجلان في الصقر، فقال أحدهما بالسين وقال الأخر بالصاد، فتحاكما إلى أعرابى ثالث فقال: أما أنا فأقول الزقر بالزاى)).[١]

وقال ابن السكيت: ((حضرنى أعرابيان من بنى كلاب فقال أحدهما إنْفَحَة، وقال الأخر مِنْفَحة، ثم افترقا على أن يسألا جماعة من أشياخ بنى كلاب، فاتفق جماعة على قول ذا وجماعة على قول ذا وهما لغتان))[٢] وفى شرح التسهيل لأبى حيان قال أبو حاتم: قلت لأم الهيثم – اسمها عثيمة –: هل تبدل العرب من الجيم ياء في شئ من الكلام ؟ فقالت نعم، ثم أنشدتنى:

إذا لم يكن فيكن ظِلٌّ ولا جَنَى فأبعدَكُنَّ اللهُ من شَيَرَات.[٣]

أما شواهد اللحن في الإعراب التى وقع فيها العرب فهى بدورها متعددة نذكر منها:

- ما يرويه الجاحظ في قوله [٤] ((وروى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ: (إنَّا من المجرمون منتقمون)[٥] ومنه قوله: ((وغلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قوله: (ص والقرآنُ).[٦] والحرف الآخر: (وما تنزلت به الشياطون)[٧]، [٨] وفيه أيضا ((كان سابق الأعمى يقرأ: الخالق البارئُ المصوَّرُ))[٩] فكان ابن جابان إذا لقيه قال: ياسابق، مافعل الحرف الذى تُشرك بالله فيه؟)).[١٠]

وفى عيون الأخبار يروى ((سمع أعرابى مؤذنا يقول: أشهدُ أن محمداً رسولَ الله بنصب رسول، فقال وَيْحَك: يفعل ماذا؟[١١]

وغير ذلك كثير كثير. وما قدمته هنا قصدت من ورائه الإشارة إلى عدم دقة القول إن لحن العرب إنما كان في الإعراب وحده، بينما لحن الموالى والمتعربين انحصر في نطقهم لأصوات العربية مما أدى إلى التحريف واختلاط الكلمات. ففي الروايات التي قدمتها هنا نجد من العرب مَنْ خطأ في الإعراب ومَنْ اخطأ في الأصوات وفى التراكيب وفى المعانى أو في إدراك فحوى الخطاب وهكذا. ومفهوم أن يكون أكثر ما استرعى انتباه القدماء الإعراب كونه المعيار المباشر الواضح في أدائهم للغتهم الذى يمكن ملاحظته وملاحظة أثره في الاستعمال اللغوى. ولا ننسى

---

١ - المزهر ١/ ٤٧٥
٢ - السابق
٣ - السابق
٤ - البيان والتبيين ٢/ ٢١٨
٥ - السجدة ٢٢
٦ - سورة ص١
٧ - الشعراء ٢١٠
٨ - البيان والتبيين ٢١٩/٢
٩ - الحشر ٢٤
١٠ - البيان والتبيين٢١٩/٢
١١ - عيون الأخبار ١٥٨/١

أن حالات اللحن التى أخذتهم وملكت عليهم أنفسهم وألبابهم جاءت في أقدس نص عربى وأفصحه – القرآن الكريم – وخاصة أن اللحن فيه ليس كاللحن فيما عداه. وكيف لا وهو قد يُخرج من الملة أو يُوقع في الشِّرك أو يؤدى إلى تحريم حلال أو تحليل حرام.؟ ومَنْ بوسعه أن يطيق مثل هذا أو يقبله؟

ومن هنا انصب اهتمامهم على الإعراب وتوارت إلى جانبه مشاهد اللحن الأخرى في الأصوات أو التراكيب أو المعانى وإذا كان هذا هو حال العرب فهو ينسحب بدوره لا محالة على الموالي والمتعربين فقد كان لديهم اللحن في الإعراب والمفردات والتراكيب وهو أمر يمكن فهمه وتوقعه نظرا لاستخدامهم لغة غير لغتهم مع حداثة عهدهم بها مهما اجتهدوا في تحصيلها، فلا يمنع ذلك أن يقع في كلامهم ما يقع من العرب العاربة أنفسهم. ولكن يبقى الخلل الأكبر والأوضح لديهم متمثلاً في الجانب الصوتى وبخاصة حين نطقهم الأصوات التى ليس لها نظائر في لغاتهم مثل حروف الحلق والإطباق، وبالتالى لا يتمكنون من أدائها الأداء السليم الصحيح فكان ذلك أبرز المشاهد في لحنهم ليس لكونه عنصر اللحن الوحيد عندهم بل لكونه الأبرز والأشهر لديهم كما كان اللحن في الإعراب الأبرز والأشهر لدى العرب العاربة.

- ويبقى لنا قبل أن نشرع في عرض التفسير الصوتى لبعض مظاهر اللحن في العربية المعاصرة يبقى لنا وقفة مهمة نحرر فيها القول حول أى معيار صوابى سوف نتخذه لتحديد مقياس الفصاحة حتى يمكننا تقرير ما كان لحنا خالصا، لا لبس فيه ولا قبول به ألبتة. وبين ما يمكن أن نجد له قبولا أو مكانا في رحاب العربية بوجه من الوجوه التى تبرر له هذا الوجود والقبول، فهو إن فاته أن يكون الأفصح في بابه فلا أقل من **ألَّا** يُتشكك في صحته أو صوابه. وهو ما نعرض له فيما يلى.

مقياس الفصاحة (المستوى الصوابى)

لكل لغة من اللغات بل لكل لهجة من اللهجات مستوى صوابى يقوم على أساس الحكم بالصواب أو الخطأ، والمستوى الصوابى معيار لغوى يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ في الاستعمال، وهو كالصوغ القياسي لا يمكن النظر إليه باعتباره فكرة يستعين الباحث بواسطتها في تحديد الصواب والخطأ اللغويين، وإنما هو مقياس اجتماعى يفرضه المجتمع اللغوى على الأفراد ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام في الاستعمال، والمستوى الصوابى لا يوجد في اللغة فحسب وإنما يوجد في كل شئون الثقافة بالمعنى الأعم، الذى يشمل العادات والتقاليد واللغة...الخ

إنه مقياس عام يرمقه الفرد بشىء من المهابة والاحترام ويحرسه المجتمع بأسلحة أقلها النقد الاجتماعى اللاذع.[١]

وتحديد المستوى الصوابى أمر ضرورى في كل اللغات إذ أن كثيرا من مسائل الخلاف بين اللغويين سببها الاختلاف في معيار هذا المستوى الصوابى، فهناك المتشددون الذين لا يقبلون بغير الأفصح وما عداه لحن، وهناك المتساهلون الذين يقبلون كل ما نطقت به العرب ويرون أن كل ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، أى أن المستوى الصوابى لم يكن موضع اتفاق لاعند جامعى اللغة ولا عند النحويين أو اللغويين فقد روى ابن خالويه في شرح الفصيح: قال أبو حاتم "كان الأصمعى يقول أفصح اللغات ويلغى ما سواها وأبو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحدا، فيجيز كل شىء قيل، قال: ومثال ذلك أن الأصمعى يقول حزننى الأمر يحزننى، ولا يقول: أحزننى، قال أبو حاتم وهما جائزان لأن القراء قرءوا (لايحزنهم الفزع الأكبر) و(لايحزنهم) جميعا بفتح الياء وضمها."[٢]

ويروى الزبيدي في طبقاته "قال ابن نوفل: سمعت أبى يقول لأبى عمرو بن العلاء: أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمى ما خالفنى لغات".[٣]

ومن ذلك أيضا اختلافهم في تحديد دائرة القياس اللغوى، حيث اقتصر البصريون على جواز القياس على المشهور الشائع، وأبَوا القياس على القليل النادر في حين أن الكوفيين قد أجازوا القياس على الشاهد الواحد أو الشاهدين".[٤]

---

١ - اللغة بين المعيارية والوصفية د. تمام حسان ٦٩
٢ - المزهر ٢٣٣/١
٣ - طبقات النحويين ٣٩
٤ - الاقتراح للسيوطى ٨٤

أما ابن جنى فيقول "باب في ترك الأخذ عن أهل المَدَر كما أخذ عن أهل الوبر: علة ذلك امتناع ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما يرد عنها وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنَّا لا نكاد نرى بدويا فصيحا وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدَم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه".[١]

الفصاحة إذن ليست مقصورة على فريق دون فريق بل يلزم التحقق من لغة وكلام كل فريق والتثبث من صحة ما يذهب إليه حضرياً كان أو بدوياً. والمعيار في ذلك ما يبيحه القياس أو ورد بمثله سماع".[٢]

ومادة اللغة العربية تتوزع بين قسمين:

- المقيس: وهو ما يخضع لقاعدة عامة تجمع الأشباه والنظائر ويحتكم فيها إلى كتب القواعد النحوية والصرفية ومن أمثلته رفع الفاعل ونصب المفعول وتعدية الفعل..الخ
- المسموع: وهو ما لا يخضع لقاعدة ولا مجال للاحتكام فيه إلى كتب النحو والصرف فهو نوع لا يوجد فيه صلة بينه وبين غيره، ولذا يكون الاحتكام فيه إلى السماع من العرب وإلى المعاجم اللغوية ومن أمثلته ضبط عين الفعل الثلاثى المجرد بالشكل ومجيء بعض الأفعال متعديا بنفسه.

والفرق بين النوعين يتجلى في كون النوع الأول يمكن أن يستخدم المرء فيه القياس دون حاجة إلى تتبع كلام العرب، وأما القسم الثانى فلا يصح فيه القياس، إذ لابد في كل مثال من الرجوع إلى كلام العرب وإلى إثبات ورود الاستعمال أو عدم وروده في كلامهم.[٣]

أما مصادر جمع اللغة التى ارتضاها القدماء فقد تمثلت فى:

١- القرآن الكريم: فهو كتاب العربية الأول والنص الصحيح الأوحد الذى وصل إلينا سليما من عبث الزمان والوضاع. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد وضعه اللغويون في أعلى درجات الفصاحة فهو أهم وثيقة لغوية صحيحة بين أيديهم وهو خير ممثل للغة الأدبية ولذا فموقفهم منه محسوم من حيث الاستشهاد به.

---

١ ـ الخصائص ٦/٢

٢ ـ نفسه

٣ ـ العربية الصحيحة: د. أحمد مختار عمر ٣٤

٢- القراءات القرآنية: نظر اللغويون إليها باعتبارها أحد المصادر اللغوية المهمة وكان شرطهم الوحيد لقبول القراءة هو "صحة روايتها عن القارىء العدل حتى ولو كان فردا" ويستوى عندهم أن تروى القراءة بطريقة التواتر أو بطريق الآحاد كما يستوى عندهم أن تكون القراءة سبعية أو عشرية أو شاذة، وهذا ابن جنى يرى وضع القراءة الشاذة على قدم المساواة مع القراءة السبعية يقول: "إنه نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية من أمامه ووراءه ولعله أو كثيرا منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه.[١]

وإذا كان اللغويون لم يشترطوا النقل المتواتر في أى نص لغوى فلماذا يشترطونه في القراءة القرآنية وإذا كانوا قد سمحوا بقبول نقل الواحد إذا كان الناقل عدلا رجلا أو امرأة حرا كان أو عبداً فلماذا يوضع قيد على قبول القراءة دون غيرها.[٢]

ويذهب السيوطى إلى القول "كل ما ورد أنه قرىء به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة إذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولوخالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه.[٣]

ولعله من المهم في هذا السياق التنبيه إلى أن كل المصادر اللغوية التى يتم الاعتماد عليها عدا القراءات القرآنية وطرق التلاوة للنص القرآنى قد وردت مكتوبة غير منطوقة وهو ما يجعلها عرضة للتصحيف أو التحريف في مقابل القراءات القرآنية وطرق التلاوة للنص القرآنى والتى تمثل النموذج الوحيد لكيفية نطق الأصوات العربية قديما وحديثا.

٣- الشعر العربى: وقد قسموا الشعراء إلى طبقات أربع :

- الجاهليون: وهم قبل الإسلام مثل طرفة وامرىء القيس
- الإسلاميون: وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق
- المولدون: وهم من بعدهم كبشار وأبى نواس

ويتفق النحاة واللغويون على صحة الاستشهاد بشعر الطبقتين الأوليين واختلفوا في الاستشهاد بالطبقة الثالثة ولكن الراجح صحة الاستشهاد بكلامها أما الطبقة الرابعة فالصحيح عندهم أن لا يستشهد بكلامها إطلاقا وإن كان بعض اللغويين مثل الزمخشرى – يحتج بطبقة المولدين وقد سئل كيف يستشهد في الكشاف بشعر لأبى تمام فرد قائلا: (أجعل ما ينظمه بمنزلة ما يرويه) يشير بذلك إلى مجموع أبى تمام المعروف باسم (ديوان الحماسة) والذى تلقاه العلماء بالقبول والثقة.[٤]

---

١ - المحتسب لابن جنى -٣٢/١
٢- الاقتراح للسيوطي ٨٦
٣ - السابق ٤٨
٤ - خزانة الأدب للبغدادي ٤

٤- النثر العربى: لم يكن أوفر حظا من الشعر العربى إن لم يكن القيد عليه أثقل والوطأة أشد، ذلك أن القدماء حين عرضوا للنثر اختلفوا في الفصيح منه وغير الفصيح، يقول أبو نصر الفارابى "والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليه اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ولا من تغلب والنمر[١] فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد قيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم".[٢]

ومن النص السابق يتضح أن اللغويين قد وضعوا شروطا جائرة حتى يقبلوا مادة النثر فكان المدى الزمنى الذى يبيح الاستشهاد به في إطاره آخر القرن الثانى الهجرى بالنسبة لعرب الحواضر وآخر القرن الرابع بالنسبة لعرب البادية، أما إطار المكان فقد تحكم فيه عدة عناصر منها فكرة البداوة وفكرة الحضارة فكلما أوغلت القبيلة في البداوة كانت أفصح وكلما كانت متحضرة أو قريبة من حياة الحضارة كلما انتقص ذلك من فصاحتها وبالتالى تجنبوا الأخذ عنها، حجتهم في ذلك أن الانعزال عن الأجناس الأجنبية وعدم الاتصال بها يحفظ للغة نقاوتها وفصاحتها وكلها قيود كما نرى ليس لها مبرر من عقل أو نقل ولذا لم يكن مستغربا أن نرى الاعتراض على مثل هذا الاتجاه في عزل معظم القبائل العربية وطردها من دائرة الفصاحة لا لشيء إلا منطق الشك في لغتها وفصاحتها. هذا إضافة إلى أمر آخر له أهميته ووجاهته يقول الدكتور عابدين "ويستوقفنا في هذا النص أسماء القبائل التى عزف العلماء عن لهجتها واستبعدوها من دائرة الفصحى فإن كثيرا من القبائل التى ذكرها اسماعيل بن حماد الفارابى كان لهم النصيب الأوفي في فتوح القارة الإفريقية ومنهم تألفت جموع حاشدة

١ - في النص تغلب واليمن ولعل الصواب هو تغلب والنمر كما أثبتناها هنا
٢ - المزهر ٢١١/١، ٢١٢.

من جيوش الفتح ومنهم – أيضا – انتقلت في أعقاب الفتوح أفواج كثيرة حملوا معهم لهجاتهم الخاصة إلى مهاجرهم في أرض وادى النيل وبلاد المغرب وغيرها.

وهذا يعنى أن لهجات هذه القبائل التى استبعدها العلماء من نطاق اللغة النموذجية كانت في الواقع مصدرا هاما من مصادر اللهجات العربية الحديثة في كثير من البلدان العربية في إفريقية كالمغرب ومصر والسودان ولا شك أن طائفة من سمات تلك اللهجات القديمة لا تزال ماثلة في تلك اللهجات الحديثة بصورة أو بأخرى وتتفاوت كثرة وقلة وظهورا وخفاء تبعا لاختلاف البيئات والمؤثرات ونسب التداخل والامتزاج التى تألفت منها على مر الزمن كل لهجة منها.[١]

وهذا الرأى الذى قدمه الباحث هنا يشير إلى أن اللهجات العربية الحديثة لها جذورها العربية وأصولها التى استمدتها من اللهجات العربية القديمة. وهو ما يعنى أنها بلاشك موصولة بالعربية الفصحى بدرجة لاتحتمل النفي أو الإنكار فهى من لهجات العرب والمروى والمسموع عن فصحاء العربية كذلك وهى إن أخرجها بعض القدماء من دائرة الفصاحة فإنها لم تعدَم كذلك مَنْ انتصر لها قديما وحديثا. فهذا ابن جنى ينص صراحة "وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء وإن كان غير ما جاء به خيرا منه".[٢]

وفي مزهر السيوطى جاء قوله "وقد يلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها ويَدَعوا المنقاس المطرد المختار ثم لا يجب لذلك أن يقال: هذا أفصح من المتروك وإنما الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله".[٣]

وفي الخصائص باب فيما يرد عن العربى مخالفا لماعليه الجمهور يقول ابن جنى "إذا اتفق شىء من ذلك نظر في حال ذلك العربى وفيما جاء به، فإن كان الإنسان فصيحا في جميع ما عدا ذلك القدر الذى انفرد به وكان ما أورده مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان فإن الأولى في ذلك أن يحسن الظن به ولا يحمل على فساده فإن قيل فمن أين ذلك له وليس مسوغا أن يرتجل لغة لنفسه قيل قد يمكن أن يكون ذلك التقدير وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتأبدت معالمها.[٤]

---

١ ـ من أصول اللهجات العربية في السودان ـ د. عبد المجيد عابدين ١٢

٢ ـ الخصائص ١٢/٢

٣ ـ المزهر ٢٠٨/١

٤ ـ الخصائص ٣٨٥/١

ويضيف "فإذا كان الأمر كذلك لم نقطع على الفصيح يُسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ما وُجد طريق إلى تقبل ما يورده إذا كان القياس يعاضده، فإن لم يكن القياس مسوغا له، كرفع المفعول وجر الفاعل ورفع المضاف إليه فينبغى أن يرد. وذلك لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا فلم يبق له عصمة تضيفه ولا مُسكة تجمع شعاعه.[١]

٥- الحديث الشريف: الراجح عند اللغويين عدم الاستشهاد به لأن الأحاديث لم تنقل عن النبى كما سمعت بل رويت بالمعنى فربما تجرى القصة الواحدة زمانه صلى الله عليه وسلم فلا تقال بألفاظ واحدة نحو ما روى من قوله "زوجتكها بما معك من القرآن"، "ملكتكها بما معك من القرآن"، "خذها بما معك من القرآن" ثم إن اللحن قد وقع كثيرا في رواية الحديث لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو فدخل في روايتهم له ألفاظ وتراكيب ليست من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم [٢]

ونحن وإن كنّا نتفق مع القدماء في أن الحديث النبوى قد وقع اللحن كثيرا في روايته وأنه أو أكثره روى بالمعنى فإنه من المعلوم أنه لم يكد ينتهى القرن الثالث الهجرى حتى تألفت مجموعات قيمة من الأحاديث النبوية أهمها صحيح البخارى ومسلم حيث حرص العلماء على أن يجمعوا الناس على طائفة معتمدة من الحديث النبوى، ومع كل ما أثاره النحاة إزاء الاستشهاد بالحديث فإن بعضهم قد استشهد به في بعض المواضع كما في حديث "كاد الفقر أن يكون كفرا" شاهدا على جواز دخول أن على خبر كاد ونقلوه في كتبهم خلفا عن سلف مع إشارة بعضهم في الحاشية إلى أنَّ هذا الحديث على هذا النحو من تغيير الرواة لأنه صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد.

"وما كان أغناهم عن هذا الاضطراب والتناقض لو أنهم أجازوا الاستشهاد بالأحاديث المعتمدة من حيث هى مادة لغوية دونت من زمن بعيد ورواها قوم ثقات يتقنون العربية سواء أكانوا عربا أم غير عرب"[٣]

٦- القياس اللغوى: القياس هو حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم له أو نفيه عنه بأمر جامع بينهما ثم إن كان الجامع موجبا للاجتماع على الحكم كان قياسه صحيحا وإلا كان فاسدا".[٤]

وهو أيضا "العملية التى يخلق بها الذهن صيغة أو كلمة أو تركيب تبعا لأنموذج معروف"[٥]

---

١ - السابق ٣٨٧/١

٢- خزانة الأدب ٥

٣ - المدخل إلى دراسة النحوالعربى – د. عابدين ١٠٢

٤ - المستصفى من علم الأصول –لأبى حامد الغزالى – ط الأولى ١٣٢٢هـ -٢٢٨/٢

٥ - اللغة – فندريس ٢٠٥

ويعمد المتكلم كلما دعت الحاجة إلى قياس أمور جديدة على ما في حافظته من أمور قديمة، فيقيس مالم يسمع من قبل على ما سمع، ويستنبط من ظواهر اللغة مالم يعرفه بالتلقين عن طريق ما عرفه بالتلقين وهو في كل هذا لا يهدف إلا إلى التعبير عما يدور بخلده كما يعبر الناس حوله. وهكذا نرى أن القياس يتدخل في نمو لغة الفرد دون عمد إليه أو شعور به، فعملية القياس مستمرة في كل لغة وفي كل عصر من عصوره بل يقوم بها كل فرد من أفراد هذه اللغة.[١]

ورغم أهمية القياس لكل لغة بما له من دور في نموها وتطورها فإنه لم يسلم من الخلاف حوله من قبل اللغويين فمنهم من ضيق حدوده ومنهم من وسع دائرته، يقول ابن جنى[٢] "ثم اعلم من بعد أن الكلام في الاطراد والشذوذ على أربعة أضرب:

١- مطرد في القياس والاستعمال جميعا وهذا هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة وذلك نحو: قام زيد، وضربت عمرا، ومررت بسعيد

٢- مطرد في القياس، شاذ في الاستعمال: وذلك نحو الماضى من: يَذَر ويَدَع وكذلك قولهم "مكان مُبِقل" هذا هو القياس والأكثر في السماع باقل، والأول مسموع أيضا.

٣- المطرد في الاستعمال، الشاذ في القياس: نحو قولهم: أَخْوَص الرِمْث، واستصوبت الأمر، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى قال: يقال استصوبت الشيء، ولا يقال: استصبت الشيء. ومنه استحوذ وأغيلت المرأة، واستنوق الجمل، واستتيست الشاة.

٤- والرابع الشاذ في القياس والاستعمال جميعا: وهو كتتميم مفعول، فيما عينه واو، نحو ثوب مَصْوُون، ومسك مُذْوُوف، وحكى البغداديون: فرس مَقْوُود، ورجل مَعْوُود من مرضه، وكل ذلك شاذ في القياس والاستعمال، فلا يسوغ القياس عليه ولا رد غيره إليه.

وفي كلام ابن جنى السباق ما يستحق المراجعة.

فأما القسم الأول فلا خلاف حوله، وأما القسم الثانى وهو المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال فهو مثار للجدل والنزاع بين العلماء في كل العصور حيث يقصد به تلك الكلمات الجديدة التى استنبطها المولدون قياسا على ما سمع وروى العرب وإن لم تسمع عن العرب ولم ترو عنهم، وهو ما يؤيده ما ذهب إليه ابن جنى في قوله "باب في جواز القياس على ما يقل ورفضه فيما هو أكثر منه" يقول: هذا باب ظاهره إلى أن تعرف

---

١ - من أسرار اللغة – د. أنيس ٤٠

٢ - الخصائص ٩٧/١، ٩٨، ٩٩

صورته ظاهر التناقض إلا أنه مع تأمله صحيح وذلك أن يقل الشيء وهو قياس ويكون غيره أكثر منه إلا أنه ليس بقياس.[١]

وأما الثالث المطرد في الاستعمال وشاذ في القياس فهو أشبه بالجمع بين الأضداد فكيف يطرد في الاستعمال ويشذ في القياس ؟ ثم أليس الأساس في وجود القياس كثرة الاستعمال واطراده ؟ ثم إذا كان القياس مخالفا للاستعمال المطرد فأى قياس هذا وما وجهه ؟

وأما الرابع فعجيب أن يأتى به ابن جنى هنا فهو قد فقد أسباب وجوده ناهيك عن قبوله فلا قياس قَبِله ولا ورد به سماع فأنى له وجود؟

إذا كان ما سبق يمثل موقف القدماء من مقياس الفصاحة أو المستوى الصوابى للغة فللمحدثين موقف آخر يتمثل في أقوالهم ومنها. يقول د. أنيس "وللحكم على ما يسمى بالصواب والخطأ في اللغة يجدر بنا ألا نقول هل هذا الاستعمال مألوف معهود في اللغة؟ أو هل هو يوافق قواعد النحاة واللغويين كما استنبطوها لنا؟ بل الواجب حين نسمع قولا ونريد الحكم عليه أن نتساءل هل استخرج المتكلم مثل هذا القول من حافظته أو كونه هو بنفسه وعلى أى قول قاس هذا"[٢]

ويرى د. تمام حسان أن "كل سلوك لغوى لابد أن يراعى فيه عنصران هامان لايستغنى عنهما:

١- عنصر الوضوح: الذى يسد الحاجة اللغوية أو المعنى الوظيفي.

٢- عنصر المطابقة: الذى يسد الحاجة الاجتماعية أو المعنى الاجتماعى.

وحاصل جمع الحاجتين اللغوية والاجتماعية هو مراعاة المستوى الصوابى الذى نتكلم عنه فإذا أريد بالنص اللغوى أن يكون نصا أدبيا وجب أن يراعى فيه جانب العنصرين السابقين عنصر ثالث هو عنصر الجمال وبه يسد النص الحاجة الجمالية الفنية وبهذا يتضح الفرق بين منتج الأدب ومنتج الكلام العادى.[٣]

والذى يوجد المستوى الصوابى ويحرسه ويقوم عليه هو المجتمع أو مجموع أفراده ومن ثم يصبح كل شخص خاضعا لهذا المستوى الصوابى ولكن له في نفس الوقت أن يبدع في اللغة فإذا صادف ما أبدعه قبولا عاما في المجتمع، كان هذا الفرد إلى جانب كونه خاضعاً للمستوى الصوابي خالقاً له ومشتركاً في القيام عليه وبهذا يكون من المحتمل

---

١ ـ الخصائص ١١٦/١

٢ ـ من أسرار اللغة ـ د.أنيس ٤١

٣ ـ اللغة بين المعيارية ٥٩

بالنسبة للفرد أن يكون مؤثرا أو متأثرا بالنسبة للمستوى الصوابى بحسب الدور الاجتماعى الذى يقوم به كفرد.[1]

ومما تقدم نستطيع أن نخلص إلى المنهج الذى نعتمده في المستوى الصوابى أو في تحديد مقياس الفصاحة لما نعرضه فيما بعد من النماذج التى اخترناها من العربية المعاصرة للتحليل والكشف عن التفسير الصوتى لما شابها من لحن أو حاد بها عن الفصاحة ويتلخص هذا المنهج في الآتى:

- قبول كل ما وافق قياس العربية.
- قبول كل ما وافق لهجة من اللهجات العربية القديمة.
- قبول كل ما وافق رواية أو سماعا عن العرب.
- قبول ما يرد منسوبا إلى لغوى – ولوكان فذا – ما دام ثقة غير متهم.
- قبول كل ما يمكن تخريجه على وجه من وجوه العربية قياسا أو سماعا.
- الاسترشاد والاعتداد بقرارات وتوصيات مجمع اللغة العربية في مصر وكذا المجامع اللغوية الأخرى في البلدان العربية.
- الأخذ بما يراه اللغويون المحدثون من عناصر التطور اللغوى وتنمية اللغة.
- الترخص في الأخذ ببعض التعبيرات الشائعة أو الأساليب المستحدثة التى كان القدماء ينكرونها أو التى لم تسجلها المعاجم اللغوية ما كان ممكنا تخريجها أو تأويلها على قياس صحيح أو رواية صحيحة تبقيها داخل دائرة اللغة الفصيحة وإن لم تكن الأفصح.
- رفض كل ما جاء خارجا عن القياس أو السماع أو كليهما ولا يمكن رده إلى دائرة اللغة العربية على أى وجه كان.

والآن وبعد أن قدمنا فيما سبق معنى اللحن المقصود الذي نستخدمه في هذا البحث. وبعد أن حددنا كذلك مقياس الفصاحة والمستوى الصوابي الذي سوف نلتزمه فيه، نبدأ في تناول بعض النماذج من العربية المعاصرة التي أخضعناها للتحليل كي نصل إلى التفسير الصوتي لحالات اللحن التي أصابتها. وقد عالجنا هذه الحالات تحت ثلاثة عناوين أساسية هي على الترتيب: الإبدال – المماثلة والمخالفة – النبر. وهي ما نعرض له في الصفحات القادمة.

---

١ ـ السابق ٦٤

الإبدال:

من اللظواهر اللغوية التى حظيت بعناية القدماء والمحدثين على السواء وقوع التبادل بين الأصوات اللغوية وهو تطور طبيعى في أصوات كل اللغات وتتجلى مظاهر عناية القدماء به في كثرة المؤلفات فيه سواء أكانت مؤلفات مستقلة للغويين أو في أبواب عقدوها في مصنفاتهم المختلفة لهذه الظاهرة يقول ابن فارس "ومن سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض، ويقولون: (مدحه ومدهه) و(فرس رفل ورفن) وهو كثير مشهور قد ألف فيه العلماء".[١]

ومن المحدثين نرى الدكتور إبراهيم أنيس يتحدث عنه في قوله "حين نستعرض تلك الكلمات التى فسرت على أنها من الإبدال حينا أو من تباين اللهجات حينا آخر لانشك لحظة في أنها جميعا نتيجة التطور الصوتى أى أن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروى لها المعاجم صورتين أو نطقين ويكون الاختلاف بين الصورتين لايجاوز حرفا من حروفها نستطيع أن نفسرها على أن إحدى الصورتين هى الأصل والأخرى فرع لها أو تطور عنها غير أنه في كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه".[٢]

الإبدال اللغوى إذن ليس إلا نتيجة للتطور الصوتى والمعول في مسوغات الإبدال إنما يعتمد أساسا على العلاقة ين الحرف المبدل والمبدل منه فإن كان بينهما هذه العلاقة جاز لنا أن نقول بالإبدال وإن انتفت هذه العلاقة امتنع القول بالإبدال.

وفيما يلى نعرض لبعض صور الإبدال في العربية المعاصرة لنرى مدى ارتباط هذه الحالات بظاهرة اللحن.

الإبدال بين الصوامت:

الهمزة والعين:

يقولون: فَقَعْت عين الرجل، وهو مفقوع العين، والصواب: فقأت عينه، وهو مفقوء العين، يقول صاحب المصباح: "فقأت عينه افقؤها مهموز بفتحتين بخصتها وفقأت البثرة شققتها فأنفقأت وتفقأت تشققت".[٣]

الهمزة = حرف حنجرى شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس.

العين = حرف حلقى رخو مجهور مرقق.[٤]

---

١ - الصاحبى لابن فارس – طبعة عيسي البابى الحلبى ١٩٧٧- ٣٣٣

٢ - من أسرار اللغة – د. إبراهيم أنيس ط السادسة ٧٥

٣ - المصباح المنير للفيومى – المكتبة العلمية – بيروت ٤٧٩/٢

٤- اللغة العربية معناها ومبناها – د. تمام حسان ط٢ – ١٩٧٩ – ٧٩ – والأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية ١٩٧٩ - ٩٠

والعلاقة الصوتية بين الصوتين واضحة حيث تقارب مخرج الحرفين واختلفا صفة وهذا ما يعرف بإبدال التقارب.[١]

الهمزة والواو:

- يقولون: وازيته: أى حاذيته. والأفصح آزيته [٢]. لأنه من الإزاء تقول جلست بإزائه، ولا تقول بوزائه.

يقول صاحب المصباح: الإزاء: مثل كتاب هو الحِذاء وهو (بإزائه) أى مُحَاذيه [٣].

ويقولون: واسيته بمالى. والصواب آسيته. وهى المؤاساة مهموزة [٤]

وفى الوسيط: (آسى) بينهما يؤاسى، ويواسى، مؤاساة، ومواساة: سَوَّى: و(آسى) فلانا بماله: أناله منه. و(آسى) فلانا بمصيبته: واساه؛ أى عزَّاه وسَّلاه.[٥]

- هذه الألفاظ مما عرض له اللغويون القدماء فمنهم مَنْ خطَّأها، ورماها باللحن ومنهم من قبلها فابن مَكِّى في تثقيف اللسان عند تعقيبه على وازيته قال: و"الأفصح" ازيته أما وآزيته فهى إذن أقل فصاحة وإن لم يخرجها عن دائرة الصحة اللغوية ولكنه أنزلها منزلة أدنى، ولعله هنا أكثر إنصافا في عرضه للكلمة مما سلكه حين عرض لـ (آسى) الذى نجده ينص بحسم قائلا: (الصواب): هى المؤاساة مهموزة فهنا ليست أدنى درجة في الفصاحة بل هى خطأ خالص والكلمة مع ذلك وردت في المعجم الوسيط مهموزة وغير مهموزة بلا فرق أو تقدمة لإحداهما على الأخرى. وهو ما نجد له نظيرا في كلام القالى في أماليه يقول: "ما يقال بالهمز والواو. قال أبو على قال الأصمعى: أرّخت الكتاب وورّخْتُه. وآكَفْت الدابة وأوكفتها، وإكاف ووكاف، وأكدت العهد ووكدته. ووسادة وإسادة.. ووشاح وإشاح. وولدة وإلدة وآختيه وواخيته".[٦]
- وهكذا نجد نظائر في لغة القدماء لما بين أيدينا هنا، وإن كان بعض القدماء قد تشدد فرفضها بادعاء لحنها مرة أو أنها أقل فصاحة مرة أخرى، فإننا وجدنا من القدماء كذلك مَنْ انتصر لها ورواها بالحالتين على قدم المساواة دون مفاضلة. وهو ما نرى أنه الأولى بالاتباع وبخاصة أن المعاجم اللغوية انتصرت لهذه الرؤية وروت الكلمة بالحالتين المهموزة والمجردة منها.

١- الاشتقاق – عبد الله أمين – الخانجي بالقاهرة ٣٥٤ ودراسات في فقه اللغة – صبحي الصالح ط ٩ بيروت ٢١٧
٢- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان – ابن مكى الصقلى – القاهرة ١٩٦٦ – ت.د عبد العزيز مطر ٧٥
٣- المصباح ١٣/١.
٤- تثقيف اللسان ٧٥.
٥- المعجم الوسيط ١٩/١.
٦- الأمالى ١٦٦/٢.

الهمزة والياء :

ورد عدد من الكلمات في العربية المعاصرة غير مهموزة والأصل فيها الهمز على ما سوف نراه فيما يلى , ولكن المهم في هذا الإطار الإشارة إلى أن هذه الكلمات وبهذه الصيغة غير المهموزة وجدت في العربية القديمة كذلك. ولذا لم يغفل عنها اللغويون ومن بين مَنْ عرضوا لها ابن مكى الصقلى الذى نراه وقد تتبع كل كلمة من هذه الكلمات وذكر مقابلها ما رأى أنه الصواب وهو ما يعنى ضمنا أن هذه الصيغ غير المهموزة صيغ ملحونة. وهو ما سنعرضه في الأمثلة الآتية :

يقولون: – قَرِيت الكتاب

ظهرت مساوِيه

سَلَيت السمن

مَلَيت الإناء

خَبيت الشئ

هَدَيْت من قلقى

قال ابن مكى. فى: (قريت الكتاب)، والصواب: قرأت بالهمز.[١]

وفى (مساويه)، والصواب مَساوِئه.[٢]

وفى (سليت)، والصواب سَلَأت، وهو السِّلاء ممدود.[٣]

وفى (مليت)، والصواب ملأته فهو مملوء.[٤]

وفى (خبيت)، والصواب خبأته فهو مخبوء وفى المثل العربى: المرء مخبوء تحت لسانه.[٥]

وفى (هديت) والصواب هَدَأْت.[٦]

وباستقراء المعجم الوسيط في ذلك نجد الآتي:

(قريت) عرض الوسيط لها ولمشتقاتها وكلها مهموزة.[٧]

وفى (سليت): (سلأ) الدهن أو الزبد – سَلْئاً، وسِلاء: أذابه بالتسخين ونحوه... و(استلأ) الزبد أو الدهن: سلأه. والسلاء: السمن ونحوه ما دام خالصا. – فالصيغة الفصيحة مهموزة لا غير.[٨]

وفى (مليت) مَلِئ، مَلْئا: امتلأ.[٩] مهموزة لا غير.

١- تثقيف اللسان ٧٦.
٢- نفسه ٧٧.
٣- السابق.
٤- السابق ٧٦.
٥- نفسه.
٦- نفسه.
٧- الوسيط ٢ / ٧٥٠.
٨- السابق ١ / ٤٥٧.
٩- الوسيط ٢ / ٩١٧.

وفى (خبيت): خبأه، خَبْئا: ستره. وحفظه ومادة الكلمة مهموزة كذلك.[١]
وفى (هديت) هَدَأ هَدْءا وهُدوءا: سكن ويقال هدأ الألم عنه وأَهْدَأَ الشئ: سكَّنه والمادة بدورها مهموزة[٢].
أما (مساويه) فقد قدم الوسيط مادتها على النحو الآتى :
(السُّوء) كل ما يغم الإنسان وكل ما يقبح وجمعه أسواء. و(السُّوأى) مؤنث الأسوأ، والسيئة، والنار. والسَّوْآء: الخلة القبيحة... ضد الحسناء. و(السَّيْءُ) كل قبيح وشائن (مخفف السيئ) , و(السيئة): الصغير من الذنوب، والعيب والنقص والخطيئة و(المساءة): نقيض المسرة.
و(المساوى): المعايب والنقائص (لا تهمز) قيل لا واحد لها، وقيل واحدها: سوء على غير قياس.
وفى المثل: "الخيل تجرى على مساويها": يضرب للرجل يستمتع به وفيه الخصال المكروهة".[٣]
كل الكلمات التى وردت هنا والتى أشار إليها ابن مكى بأن صوابها الهمز اتفق فيه مع المعجم العربى على ما سبق أن قدمته هنا إلا في حالة (مساويه) فالمادة حقا جاءت من أصل مهموز وكل مشتقاتها جاءت مهموزة إلا واحدة هى (مساويه) والنص القاطع في أنها (لا تهمز) حتى حين قالوا: وقيل واحدها: (سوء) على غير قياس ولعل هذا ما أغرى ابن مكى ودفعه إلى القول: والصواب: مساوئه بالهمز.
فالكلمة على حالها هكذا (مساويه) فصيحة صحيحة والمدهش أنها وحدها بين مشتقات واستعمالات المادة التى جاءت غير مهموزة، بل هى (لا تهمز)، وإذا ما عدنا إلى البحث عن تفسير لهذه الظاهرة نقول.
صوت الهمزة = صوت حنجرى شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس.
صوت الياء = صوت غارى متوسط لين [٤].
وواضح التباعد بين الصوتين مخرجا وصفة فلا علاقة صوتية إذن تجيز مثل هذا الإبدال ولكننا نستطيع أن نقدم تفسيرا آخر يعتمد على الرغبة في التخلص من النطق بصوت الهمزة نظرا لصعوبة ومشقة النطق بها، وهو ما رأيناه واضحا في رغبة القدماء التخلص من النطق بالهمز ما تيسير لهم ذلك أو أتيح لهم ولذلك تعددت وسائلهم في ذلك مثل نطقها مسهلة كما في قولهم مثلا (آمل، آريت) في (أأمل، أرأيت)، أو حذفها كما في قولهم (تيها، وألاك) بدلا من (تيهاء، وأولئك) أو إبدالها كما في (التحريش، والتأريش)، و(هرق وأرق) وهكذا. وكلها وسائل تعددت من أجل غاية واحدة هى التخلص من النطق بالهمز وهو ما جعل الأمر مقبولا معترفا به فيما بينهم ولم يخرج

١- الوسيط ١/ ٢٢١.
٢- الوسيط ٢ / ١٠١٤.
٣- الوسيط ١ / ٤٤٧.
٤- العربية معناها ومبناها ٧٩.

مثل هذه الحالات من دائرة الفصاحة أو الصحة اللغوية. ولعل فيما يرويه ابن جنى صدد عرضه لهذه الظاهرة ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه هنا.

يقول ابن جنى في (باب في حذف الهمز وإبداله): قد جاء هذا الموضع في النثر والنظم جميعا وكلاهما غير مقيس عليه، إلا عند الضرورة فإن قلت: فهلا قست على ما جاء منه في النثر، لأنه ليس موضع اضطرار ؟ قيل: تلك مواضع كثر استعمالها فعرفت أحوالها، فجاز الحذف فيها كما حذفت لم يك، ولم يبل، ولا أدر في النثر، لكثرة الاستعمال ولم يقس عليها غيرها [١].

وفى موضع آخر يقول: ألا ترى أن قريت مبدلة من قرأت، بوزن قريت من قريت الضيف ونحو ذلك [٢].

ويقول: "لقى أبو زيد سيبويه فقال له: سمعت العرب تقول: قريت، وتوضيت، فقال له سيبويه: كيف تقول في أفعل منه ؟ قال: أقرأ. وزاد أبو العباس هنا: فقال له سيبويه فقد تركت مذهبك، أى لو كان البدل قويا للزم ووجب أن تقول أقرِى، كرميت أرمى".[٣]

ويتضح من كلام ابن جنى أن مثل هذه الظاهرة وإن جاءت في النثر وفى النظم، فإنها تبقى في نطاق السماع الذى نقبله بحدوده تلك دون القياس عليه، إلا عند الضرورة وحتى في هذا التحديد للقياس بالضرورة اعتراف بأنه مازال في دائرة العربية الصحيحة فإن لم يطرد في القياس فهو موجود في المروى المسموع وهما مناط اعتبار الفصاحة في العربية فإما أن يكون مما يقبله القياس، وإلا كان مما ورد به السماع وكلاهما صحيح فصيح. ومما يلحق بما سبق من هذه الظاهرة ما نراه من إسقاط الهمز من أواخر بعض الكلمات مثل: مينة بدلا من ميناء، وبيضة بدلا من بيضاء وغُمَّيضة بدلا من غُمَيضاء [٤].

الجيم والدال:

ومما جاء من ذلك قولهم لِمَا يُطحن من البُر وما شابهه غليظا: دشيش.[٥]

والصواب جَشِيش بالجيم. وفى القاموس المحيط: والجَشِيش حنطة تطحن جليلا فتجعل في قدر ويلقى فيها لحم أو تمر فيطبخ.[٦] وفى الوسيط: (الجشيشة): الحب المجروش يلقى عليه لحم أو تمر فيطبخ. وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم "أَوْلَم على بعض أزواجه بجشيشة".[٧]

١- الخصائص ٣ / ١٤٩.
٢- السابق ٣ / ١٥٣.
٣- السابق ٣ / ١٥٤.
٤- تثقيف اللسان ٧٨.
٥- تثقيف اللسان ٨١
٦- القاموس المحيط (جشّ)
٧- الوسيط (جشّ)

وما حدث هنا هو انتقال الجيم إلى مخرج الدال. حيث تنتقل الجيم من مخرجها عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى إلى مخرج أمامه يلتقى فيه طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما، ينتج عن ذلك زيادة شدتها وانقطاع تعطيشها، مع بقاء صفة الجهر. وهذا المخرج الأمامى هو مخرج الدال. ولعل مما يؤكد الصلة بين الجيم والدال ما ذهب إليه د. أنيس في قوله: "غير أنا حين نستعين بموسيقى الفواصل القرآنية في سورة البروج" نستطيع أن نرجح أن النطق القديم بهذا الحرف كان أقرب إلى نطق الدال وألصق بها من أى حرف آخر، أى قليل التعطيش جدا. فاستمع إلى الفواصل في هذه السورة "والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود" نلحظ أن الفاصلة الأولى اختتمت بحرف الجيم ثم جاء بعدها ثمانى فواصل كلها مختتمة بحرف الدال، مما يرجح أن القراءة التى تبرز موسيقى الفواصل هنا تحتم أن ينطق بالجيم نطقا أقرب شبها بالدال وأوثق اتصالا بها".[١]

الجيم والشين:

ومنه قولهم: اشترَّت الماشية، والصواب: اجترت، وهو أن تجتر ما في بطنها [٢].

وفى الوسيط: اجتر البعير: أخرج جرَّته.[٣]

ومن ذلك أيضا: فلان مشتهد في حاجتك. والصواب: مجتهد، وهو مُفْتَعِل من الجُهد.[٤]

الجيم: صوت مجهور قليل الشدة غارى.

الشين: صوت رخو مهموس غارى.[٥]

والعلاقة الصوتية بين الجيم والشين واضحة والتبادل بينهما مقبول من الناحية الصوتية فالجيم والشين متحدان في المخرج فمخرجهما من وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى، وهما متحدان في صفات الإصمات والانفتاح والاستفال. وتنفرد الجيم بالشدة والقلقلة، والشين بالتفشى والهمس.[٦]

١- الأصوات اللغوية ٨٢.
٢- تثقيف اللسان ٨١.
٣- الوسيط (جرّ).
٤- تثقيف اللسان ٨١.
٥- العربية معناها ٧٩ – الأصوات اللغوية ٧٦.
٦- الاشتقاق ٣٥١.

الخاء والغين:

مما يتداول قولهم: غفير القوم – أو يعمل في غِفارة فلان، والصواب بالخاء يقال: خِفارة وخُفارة وخفرة.[١]

وفى الوسيط: الَخَفَارَة والُخفارة والِخفارة: الحراسة. وحرفة الخفير. والخفير: الحارس[٢]

الخاء = حلقومى (لهوى) رخو مهموس مرقق

الغين = حلقومى (لهوى) رخو مجهور مفخم[٣]

وقع التبادل بين صوتى الخاء والغين وهو من إبدال التجانس حيث تقاربا مخربا واختلفا صفة

الدال والذال:

– يقولون لبست بَدلة من ثيابى. والصواب بِذلة بالذال المعجمة وكسر الباء [٤]

وفى الوسيط: (البِذْلة) من الثياب: ما يلبس في المهنة والعمل ولا يُصان. (ج) بِذَل [٥].

– ويقولون: قُنْفد والصواب قنفذ بالذال المعجمة، والظاء أيضا.

يقال قُنفُذ، وقَنفُظ، وقنفَظ لا غير. قال الشاعر:

مثلُ القنافِذ هدَّاجون قد بَلغت نجرانَ أو بلغت سوآتهم هجَرُ. [٦]

وفى الوسيط: القُنْفُذُ: دويبة من الثدييات ذات شوك حاد. يلتف فيصير كالكرة، وبذلك يقى نفسه من خطر الاعتداء عليه و(ج) قنافذ [٧].

– ويقولون: الزُّمُرُّد. والصواب زُمُرَّذ بالذال وفتح الراء وقد تضم [٨].

وفى الوسيط: الزُّمُرُّد: حجر كريم أخضر اللون، شديد الخضرة، شفاف، وأشدّه خضرة أجوده وأصفاه جوهرا. واحدته: زُمُرّدة. (مج) [٩].

وفى القاموس المحيط: (الزُّمُرُّذ) بالضمات وشد الراء الزبرجد معرب [١٠]

نلحظ أن كلمة (زمرذ) رويت في القاموس المحيط بالذال وهو ما يجعل احتجاج ابن مكى على الكلمة صحيحا من حيث أصل وضع الكلمة أما ما جاء في الوسيط فقد رواها بالدال غير المعجمة

١- تثقيف اللسان ٨٢.
٢- الوسيط (خفر).
٣- العربية معناها ومبناها ٧٩ – علم اللغة د. السعران ١٩٤.
٤- تثقيف اللسان ٥٨.
٥- الوسيط (بذل).
٦- تثقيف اللسان ٦٠ – والشاعر هو الأخطل.
٧- الوسيط (قنفذ)
٨- تثقيف اللسان ٦١
٩- الوسيط (زمردْ).
١٠- القاموس (زمرد)

وذلك باعتبار أنها مما أقره المجمع. وبالتالى لا يكون هناك مبرر للنظر إليها باعتبارها من الملحون أو غير الصحيح.

أما العلاقة بين الدال والذال فتتمثل في الآتى :

د = حرف أسنانى لثوى شديد مجهور مرقق.

ذ = حرف أسنانى رخو مجهور مرقق [١]

وهذا من إبدال التقارب حيث تقاربا مخرجا واختلفا صفة.

والنطق بالذال العربية: دالا في لغة الكلام المصرية، وأحيانا "زايا" إنما هو حالة من حالات التطور التاريخى للأصوات. فما أصاب الذال في الحالين هو انتقال مخرجها قليلا إلى الوراء، غير أنه في الحالة الأولى قد أصبحت صوتا شديدا، وفى الثانية احتفظت برخاوتها [٢].

السين والصاد:

ألفاظ نطقت بالسين وأصلها الصاد.

- يقولون: هذه فرسة فانتهزها، والصواب فرصة بالصاد.
- ويقولون فَقُّوس. والصواب فَقُّوص، بالصاد وفتح الفاء.[٣]
  وهى في الوسيط: الفَقُّوس: في الشام: نوع من البِطِّيخ، وفى مصر: نوع من القِثاء.[٤]
- ويقولون: سِنجة الميزان. ويقول ابن مكى: والصواب: صَنجة بالصاد المفتوحة.[٥]
- وفى الوسيط: الصنجة: السنجة.[٦]
- ويقولون فقست البيضة. والصواب: فقصت بالصاد وفتح القاف في الماضى وكسرها في المستقبل (فقَص يفقِص)[٧]
- وفى الوسيط: فقص: فقس[٨]

١- العربية معناها: ٧٩.
٢- الأصوات اللغوية ٢٠٨.
٣- تثقيف اللسان ٨٦.
٤- الوسيط ٢ / ٧٢٣.
٥- تثقيف اللسان ٨٦.
٦- الوسيط ١/ ٥٤٥.
٧- تثقيف اللسان ٨٧.
٨- الوسيط ٢ / ٧٢٣.

ألفاظ نطقوها بالصاد وأصلها السين:

- يقولون: أصابه نِقَرص: والصواب: نِقْرِس[١]
- أخذته قصرا والصواب: قسرا بالسين والقسر: القهر.
- ويقولون للكتاب الكبير: صِفر. والصواب: سفر
- ويقولون برد قارص. والصواب. قارس.[٢]
- ويقولون لنوع من البقول: خَصّ والصواب خَسّ.[٣]
- ويقولون: حَمَّصْت الحب على النار. والصواب: حَمَّسْت، بالسين[٤] مأخوذ من الحماسة، وهى الشدة، وإنما قيل لقريش "الحُمْس" لشدتهم في دينهم.
- ويقولون: صور المدينة والصواب: سور المدينة
- **ومما لا يفرقون فيه بين السين والصاد في لفظ ولا كتاب:** سرة البطن وصرة الدراهم والصواب: في سرة البطن: السين[٥]، وفى صُرة الدراهم بالصاد.[٦]

بداية وقبل أن نفصل القول في العلاقة الصوتية بين السين والصاد نلحظ هنا حالة من الاضطراب عند عرض هذه المفردات ففى (فقوس) ذهب ابن مكى إلى القول إنها خطأ والصواب فقوص بالصاد بينما نراها في الوسيط بالسين وحده. وفى السنجة ذهب ابن مكى إلى أن صوابها صنجة بالصاد بينما في الوسيط سَّوى بينهما فقال الصنجة: السنجة. وأيضا اعترض أبن مكى على فقس بالسين وصوابها بالصاد أما الوسيط فذكر فقص: فقس. وبرد قارص خطأها ابن مكى. وصوبها الزمخشرى في أساس البلاغة.[٧]

فإذا ما تحولنا إلى ظاهرة الإبدال بين السين والصاد لننظر في العلاقة الصوتية بينهما اتضح أن هذه الظاهرة ليست بالجديدة أو المستحدثة بل هى ظاهرة قديمة يؤكد ذلك اهتمام القدماء بها وحديثهم عنها يقول سيبويه: "ولولا الإطباق لصارت الطاء دالأ، والصاد سينا، والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شئ من موضعها غيرها".[٨]

وهو قول دقيق، فالسين: صوت أسنانى لثوى رخو مهموس مرقق. أما الصاد فهى صوت أسنانى لثوى رخو مهموس مفخم. فليس من فرق بينهما إلا إطباق الصاد دون السين.

١- الوسيط ٢ / ٩٨٥.
٢- تثقيف اللسان ٨٩.
٣- الوسيط ١ / ٢٤٢.
٤- الوسيط ١ / ٢٠٤.
٥- الوسيط ١ / ٤٤٣.
٦- الوسيط ١ / ٥٣٢.
٧- أساس البلاغة ٢/ ٦٩.
٨- الكتاب ٤ / ٤٣٦.

وفى خصائص ابن جنى نجد حديثه عن التقريب بين الأصوات من غير إدغام يقول: ومن ذلك أن تقع السين قبل الحرف المستعلى فتقرب منه بقلبها صادا وذلك كقولهم في سُقت: صقت، وفى السوق: الصوق، وفى سبقت: صبقت.[١]

أما صاحب المزهر فقد أورد ما ذكره البطليوسى في كتاب الفرق بين الأحرف الخمسة:

..... من هذا الباب ما ينقاس، ومنه ما هو موقوف على السماع: كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء. جاز قلبها صادا، مثل يساقون ويصاقون، وصقر وسقر، وصخر وسخر، مصدر سخِرت منه إذا هزأت. فأما الحجارة فالبصاد لا غير.[٢]

وأضاف: وشرط هذا الباب أن تكون السين متقدمة على هذه الحروف لا متأخرة بعدها وأن تكون هذه الحروف مقاربة لها لا متباعدة عنها، وأن تكون السين هى الأصل، فإن كانت الصاد هى الأصل لم يجز قلبها سينا، لأن الأضعف يقلب إلى الأقوى، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف، وإنما قلبوها صادا مع هذه الحروف، لأنها حروف مستعلية، والسين حرف متسفل، فثقل عليهم الاستعلاء بعد التسفل، لما فيه من الكُلفة، فإذا تقدم حرف الاستعلاء لم يكره وقوع السين بعده لأنه كالانحدار من العلو، وذلك خفيف لا كُلفة فيه.[٣]

ومن هذا النص نعلم أن من الكلمات المبدلة هنا ما يرجع إلى السماع ومنها ما يعتمد على القياس ولكن بشروط:

- أن تكون السين متقدمة على العين أو الغين أو الخاء أو القاف أو الطاء وحينئذ يجوز قلبها صادا.
- أن تكون هذه الحروف مقاربة لها غير متباعدة عنها.
- أن تكون السين هى الأصل، فإن كانت الصاد هى الأصل لم يجز قلبها سينا، وإنما قلبوها صادا مع هذه الحروف لأنها حروف مستعلية.

ولنا هنا وقفة مع هذه الشروط: – ذلك أن اشتراط التقارب بين الحروف ليقع التبادل بين السين والصاد يمكن الترخص فيه حجتنا قول سيبويه "وربما ضارعوا بها وهى بعيدة نحو مصادر، والصراط، لأن الطاء كالدال، والمضارعة هنا وإن بعدت الدال بمنزلة قولهم: صويق ومصاليق، فأبدلوا السين صادا كما أبدلوها حين لم يكن بينهما شئ فى: صُقت ونحوه"[٤]

– الحروف التى ذكرها هنا وأجاز قلب السين معها صادا هى (ع، غ، خ، ق، ط) هى بعض حروف الاستعلاء وبعضها ليس منها، فحروف الاستعلاء سبعة هى (خ،غ، ق،ص،ض،ط،ظ).

١- الخصائص ٢/ ١٤٢.
٢- المزهر ١ / ٤٦٩.
٣- السابق.
٤- الكتاب – ٤٧٨/٤

فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق وهى (ص ض ط ظ) وأما (خ غ ق) فلا إطباق فيها مع استعلائها. ومعنى الاستعلاء: (إن تتصعد في الحنك الأعلى).[1] ويتضح مما تقدم أن (العين) ليس من حروف الاستعلاء وبذلك يكون إدراجها هنا من قبيل الخطأ.

- الكلمات التى لم تتحقق فيها شروط البطليوسى ليقع التبادل بين السين والصاد وبذلك تخرج عن حدود القياس الذى حده لها. ينظر إليها باعتبارها مما يخضع للسماع وهو ما أشار إليه في قوله: "ومنه ما هو موقوف على السماع". ومع ذلك تبقى العلاقة الصوتية بين الصوتين قائمة وواضحة فالسين هى الصاد دون إطباق.

يبقى هنا أن نشير أخيرا إلى بعض الكلمات التى حكم عليها باللحن وهى صحيحة فصيحة، ومن ثم وجب الانتباه إليها ومنها:- (برد قارص) التى اعترض عليها ابن مكى ورماها باللحن وصوابها لديه بالسين وحده. وقد سبق وقدمت إجازة الزمخشرى لها ونص على أن قارس هى قارص لا فرق. كذلك خطَّأ ابن مكى كلمات لاحظّ للخطأ فيها بل ما جاء به ابن مكى هو الخطأ ومن ذلك قوله في (فقوس) إنها خطأ وأنها بالصاد. بينما رأيناها في الوسيط بالسين وحده ولا مكان للصاد فيها، كذلك رأى أن (السنجة، فقس) إنما هما بالصاد لا السين. وفى الوسيط نجد القول بالصاد والسين لا فرق. ولعل هذا القول المضطرب حيال بعض الكلمات يحفزنا إلى التريث وعدم الإسراع في الحكم على الكلمات باللحن أو عدم الفصاحة دون علم أو تثبت. فالتعجل بالحكم على كلمات صحيحة باللحن يتساوى مع الحكم على كلمات ملحونة بالصواب. بل ربما الخطأ هنا أفدح لأنه يترتب عليه حرمان العربية من صيغ صحيحة بدعوى اللحن، وهو مما يصيب اللغة بمرور الوقت بحالة من الجمود والتخلف في الوقت الذى نسعى حثيثا إلى رفدها بكل ما يمكن أن يعينها على النمو والتطور دون الترخص في الفصاحة أو التفريط في الصواب اللغوى.

العين والغين:

- يقولون: نَعَق الغراب. والصواب: نَغَق؛ بالغين معجمة. نَغَق الغراب: صاح فهو ناغِقٌ، ونَغَّاق.[2]

العين = حلقى رخو مرقق مجهور.

الغين = حلقومى (لهوى) رخو مفخم مجهور.[3]

تقارب الحرفان مخرجا وصفة وهذا من إبدال التقارب.[1]

١- سر صناعة الإعراب ٧١/١

٢- الوسيط (نغق)

٣- العربية معناها ٧٩

الواو والياء:

- – يقولون: رقيت الصبى رقوة. والصواب رُقْيَة. (رَقَى) المريض ونحوه رَقْيًا، ورُقِيًّا ورُقْيَةُ: عوَّذَه.[٢]
- ويقولون: مات مَوْتة سَوْء. والصواب: مِيتَة سوء.

وفى الوسيط: (المِيتَةُ): الحال من أحوال الموت. يقال: مات فلان مِيتَةً رضيَّةً.[٣]

الواو = حرف شفوى متوسط لين

الياء = حرف غارى متوسط لين.[٤]

- هذه الحالة من إبدال التباعد.[٥] حيث اختلف الحرفان في المخرج وإن اتحدا صفة. وواضح أن هذه من صور اللحن الواضحة التى ليس لها سند من قياس أو سماع.

١- الاشتقاق ٣٥٤
٢- الوسيط (رقى)
٣- السابق (مات)
٤- العربية معناها ٧٩
٥- الاشتقاق ٣٥٤

المماثلة والمخالفة

تتأثر الأصوات اللغوية فيما بينها تأثرا ينتج عنه حالة من التقارب في المخرج أو الصفة وهو ما يؤدى إلى تحقيق الانسجام الصوتى، وتوفير الجهد العضلى وتيسير عملية النطق وهو ما يطلق عليه المحدثون المماثلة Assimilation [١] وهى إحدى ظاهرتين مهمتين ترتبطان ارتباطا وثيقا بعملية تجاور الأصوات اللغوية وتأثر بعضها ببعض. أما الظاهرة الأخرى فهى ما يطلق عليه المحدثون المخالفة Dissimilation [٢] وهى تعنى أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة ينقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين.

١ – المماثلة:

المماثلة تقرب بين الأصوات المتجاورة في المخرج والصفة وقد يصل هذا التقريب بين الصوتين المتجاورين إلى أن يصبحا متماثلين تمام التماثل، وهنا قد تبدأ عملية المخالفة التى تهدف أيضا إلى التقليل من الجهد العضلى، فنرى أحد المتماثلين المتجاورين يقلب إلى صوت لين طويل أو إلى ما يشبه أصوات اللين كاللام والنون والميم والراء. وفى هذا أقصى مراحل التيسير في الجهد العضلى.[٣]

ولم يغفل القدماء عن هذه الظاهرة حيث أشاروا إليها إشارات توضح إدراكهم لطبيعتها يقول سيبويه "هذا باب الحرف الذى يضارع به حرف من موضعه، والحرف الذى يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه".[٤]

وعلة التقريب بين الأصوات يوضحها في قوله: "وإنما دعاهم إلى أن يقربوها (أى الصاد) ويبدلوها (زايا مطبقة) أن يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد".[٥]

وتناول ابن جنى الظاهرة نفسها فيما سماه بالإدغام الأصغر يقول "تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك".[٦]

و "من ذلك أن تقع فاء (افتعل) زايا أو دالا أو ذالا، فتقلب تاؤه لها دالا كقولهم: ازدان وادّعى، وادّكر واذدكر، فيما حكاه أبو عمرو".[٧]

ومن ذلك أن تقع (فاء) (افتعل) صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء فتقلب لها تاؤه طاء وذلك نحو: اصطبر، واضطرب، واطرد، واظطلم. فهذا تقريب من غير إدغام).[١]

١- التطور النحوى للغة العربية – برجشتراسر – الخانجى ١٩٨٢ م –٢٩. – الأصوات اللغوية ١٧٨
٢- التطور النحوى ٣٣. - الأصوات اللغوية ٢١٠
٣- الأصوات اللغوية ٢١٣
٤- الكتاب ٤٧٧/٤
٥- الكتاب ٤٧٨/٤
٦- الخصائص ١٤١/٢
٧- الخصائص ١٤٢/٢

ومنه كذلك "تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم في نحو مصدر: مزدر. وفى التصدير: التزدير. وعليه قول العرب في مثل: "لم يحرم من فزدله" أصله فُصِد، ثم أسكنت العين. فصار تقديره فُصْد له. فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد – وهى مهموسة – الدال – وهى مجهورة. قربت منها بأن أشمت شيئا من لفظ الزاى المقاربة للدال بالجهر".[٢]

"ومن ذلك أن تقع السين قبل الحرف المستعلى فتقرب منه بقلبها صادا. وذلك كقولهم: صُقت والصوق وصاخط، في سقت والسوق وساخط".[٣]

أما رؤية المحدثين للظاهرة فيمكن أن نمثل لها بما ذهب إليه د. إبراهيم أنيس في قوله يمكن أن نقسم درجات التأثر ونسبته إلى الموضوعات الآتية:

١- الجهر والهمس: إذا التقى صوت مهموس بصوت مجهور، فقد يقلب أحدهما إلى نظير الآخر، بحيث يتكون منهما صوتان مهموسان أو مجهوران.

٢- انتقال مجرى الهواء من الفم إلى الأنف وبالعكس: الأصوات صنفان: منها ما يتخذ الهواء مجراه حيث النطق بها خلال الفم وهى الكثرة الغالبة في اللغة العربية، ومنها ما يتخذ الهواء معها مجراه من الأنف كالنون والميم. وقد لاحظ المحدثون أن الصوت من النوع الأول قد ينتقل إلى نظيره من النوع الثانى تحت تأثير ظروف لغوية خاصة.

٣- انتقال مخرج الصوت: وفيه ينتقل الصوت من مخرجه الأصلى إلى مخرج آخر، فيستبدل به أقرب الأصوات إليه في هذا المخرج الجديد.

٤- تغير صفة الصوت من الشدة إلى الرخاوة أو العكس. ويصحب هذا التأثر عادة إدغام، كما هو الحال في بعض القراءات، كإدغام الدال في الذال أو الثاء في التاء.

٥- الإدغام وهو فناء أحد الصوتين في الآخر إذا كانا متجانسين أو متقاربين.[٤]

والتماثل نوعان:

أ- اتباعى أو تقدمى Progressive: وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول كما في (ازدان) من (ازتان) حيث تأثرت التاء المهموسة بالزاى المجهورة فقلبت التاء دالا ليجتمع صوتان مجهوران.

ب- تماثل رجعى regressive: وهو أن يتأثر الصوت الأول بالثانى، وهو كثير الشيوع في اللغة الفرنسية والعربية أيضا. ومن أمثلته في العربية الإدغام حيث يفنى الصوت الثانى في الأول. وقراءة الكسائى "حتى يصدر الرعاء" حيث أشمت الصاد صوت الزاى.[٥]

١- الخصائص ١٤٢/٢
٢- الخصائص ١٤٤/٢
٢- السابق ١٤٢/٢.
٤- الأصوات اللغوية ١٨٢.
٥- السابق ١٨٠

ونتحول الآن إلى بعض الاستخدامات اللغوية المعاصرة التى يمكن أن نستخدم ظاهرة التماثل في تفسيرها.

- يقولون: أخذه قصرا، وصوابها قسرا
  الصوق، وصوابها السوق
- ويقولون: صور المدينة، وصوابها سور
  وصرة البطن، وصوابها سرة

فهذه النماذج من أمثلة التماثل بسبب تأثير الأصوات المستعلية.

فهنا نلحظ قلب السين صادا لوجود الراء بعد السين. والراء تعد من أصوات الاستعلاء ولها حكمها[١].

- ويقولون: اشترت الماشية والصواب اجترت وهو مثل قولهم: فلان مشتهد في فلان مجتهد.

التماثل أيضا ما يفسر حدوث هذه الحالة. فالجيم صوت مجهور جاورت التاء وهى مهموسة فتأثرت الجيم بالتاء تأثر رجعيا وهو كثير الشيوع في العربية فقلبت الجيم صوتا مهموسا، يتحد معها في المخرج وهو الشين فكلاهما من أصوات وسط الحنك ومخرج الجيم عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى. ومخرج الشين عند التقاء أول اللسان وجزء من وسطه بوسط الحنك الأعلى.

- وكما يقع التماثل في الصوامت يقع كذلك في الصوائت وهو ما يسمى Vowel Harmony وقد أشار إليه القدماء كذلك يقول ابن جنى "ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شِعِير وبِعِير ورِغِيف".[٢]

- "ومن ذلك أيضا قولهم (فَعَل يَفْعَل) مما عينه أو لامه حرف حلقى نحو سأل يسأل وقرأ يقرأ... وذلك أنهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق، لما كان موضعا منه مخرج الألف التى منها الفتحة".[٣]

"ومن ذلك الإمالة. وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت، وذلك نحو عالم وكتاب وسَعَى وقضى واستقضى. ألا تراك قرّبت فتحة العين من عالم إلى كسرة اللام منه، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة فأملت الألف نحو الياء، وكذلك سعى وقضى، نحوت بالألف نحو الياء التى انقلبت عنها".[٤]

١- الأصوات اللغوية ٢٤
٢- الخصائص ١٤٣/٢
٣- السابق ١٤٣/٢.
٤- الخصائص ١٤١/٢

ويقول في سر الصناعة "واعلم أنك كما قد تجد هذه المضارعة وهذا التقارب بين الحروف، فقد تجده أيضا بين الحركات".[١]

ويقول صاحب شرح المفصل "تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل".[٢]

وإذا كان القدماء قد عرضوا للتماثل بين الصوائت كما تبين من أقوالهم التى عرضنا لبعضها هنا، فالمحدثون بدورهم لم يتخلفوا عن أن يدلوا بدلوهم فيها لما لها من أثر واضح في الاستعمال اللغوى. يقول د. أنيس "ويلعب الانسجام بين أصوات اللين دورا هاما في معظم لغات البشر، وهو من التطورات الحديثة التى تميل إليها اللغات بصفة عامة".[٣]

وإذا كان الباحث يرى هنا أن هذه الظاهرة من التطورات الحديثة فالصحيح أن الظاهرة قديمة وقد سبق وعرضنا بعضا مما قدمه اللغويون العرب في تناولهم لها. وإن كان يحسب للمحدثين التوسع في عرض الظاهرة ومناقشتها وتفصيل القول فيها.

ونتوقف الآن لنعرض بعضا مما ورد في لغة المعاصرين ممثلا لهذه الظاهرة. ومن ذلك نماذج لعدد من الأفعال التى نطقها المعاصرون نطقا لا يتفق وصحيح العربية، حيث نراهم وقد غيروا حركات الفعل الذى جاء من (فَعِل) وحولوه إلى (فَعَل) وهو بهذه الصورة لحن لا يتفق وصحيح اللغة ومن ذلك الأمثلة الآتية :

- يقولون: لحَس والصوابَ لحِس
  لعَق والصواب لَعِق
  خَربَت والصواب خَرِبَت
  شَبَع والصوابَ شبِع
  لَبَس الثوب والصواب لَبِسَ
  سَخَر منه والصواب سَخِر
  شَمَله الأمر والصواب شَمِله
  صَعَد والصواب صَعِد
  حَفَظ والصواب حَفِظ
  رَغَب في والصواب رَغِب
  شَهَد والصواب شَهِدَ
  عَهَد والصواب عَهِد

١- سر الصناعة ٥٨/١
٢- شرح المفصل لابن يعيش – مكتبة المتنبى ٥٤/٩
٣- في اللهجات العربية ٦٨

عَمَل والصواب عَمِلَ

غَرَق والصواب غَرِق

فَشَل والصوابَ فشِل

قَبَل والصوابَ قَبِل

نَسَى والصوابَ نسِى

نَشَب والصوابَ نشِب

نَضَج والصوابَ نضِج

نَفَد والصوابَ نفِدَ

هَوَى (القراءة) والصواب هَوِى (القراءة)

شَمَم الصواب شَمِم

وَطَأ والصواب وَطِئ

لَثَم والصوابَ لِثم

فَرَك (زوجه) والصوابَ فرِك (زوجه)

سَمَن والصواب سَمِن

ومن التقريب بين الصوائت كذلك ما نراه من كلمات يتم الانتقال فيها من ضم إلى فتح أو من فتح إلى ضم تحقيقا للانسجام الصوتي ومن ذلك قولهم

قُرنفُل والصوابَ قرنْفُل

فُسُتق والصوابُ فسَتق

سُحُور والصواب سَحُور

فُطُور والصواب فَطُور

رُكُوب والصواب رَكُوب

دَوَّامة والصواب دُوَّامة

لَغوَى والصواب لُغوَى

ومنه أيضا الإتيان بصائتين من جنس واحد على خلاف الأصل بغية تحقيق التماثل والانسجام بين الأصوات ومن ذلك

دِمِشق والصوابِ دمَشق

فِلِسطين والصوابِ فلَسطين

رِغِيف والصواب رغِيف

شِعِير والصواب شَعِير

بِعيد والصواب بَعِيد

بِعِير والصواب بَعِير

ومثله قولهم: وَتَد والصواب وَتِد

مَسَلة والصواب مِسَلة

مَبَرد والصواب مِبَرد

خَزَانة والصواب خِزَانة

ومن ذلك أيضا تحريك الساكن: يقولون للشر والجلبة: شَغَب والصواب شَغْب بإسكان الغين ولا يجوز الفتح إلا على أصل الكوفيين فإنهم قد أجازوا فتح كل ما كان على وزن فَعْل إذا كان أوسطه حرف حلق والبصريون يأبون ذلك ولا يفتحون إلا ما جاء مسموعا عن العرب [١]

ومثله قولهم: نظر من طَرَف خفى. والصواب طَرْف ذلك أن طرَف نهاية الشيء أما طرْف فهو العين. وقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى "يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ".[٢]

وقوله تعالى "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ".[٣]

ويقولون حَلَقة والصواب حَلْقة بفتح الحاء وإسكان اللام. وكذلك حَلْقة العلم وحَلْقة الخياطة، وكل مستدير.

قال أبو عمرو الشيبانى: لا يقال حَلَقة بفتح اللام في شيء من الكلام إلا في حَلَقة الشَّعَر، جمع حالق مثل كافر وَكفَرة، وظالم وَظلَمة [٤]

وفى إصلاح المنطق "تقول هى حَلْقة الباب وحَلْقة القوم والجميع حَلَقٌ وحِلاقٌ"

قال أبو يوسف وسمعت أبا عمرو الشيبانى يقول: ليس في الكلام حَلَقة إلا جمع حالق، تقول هؤلاء قوم حَلَقة للذين يحلقون الشعَرَ ويقال قد حَلَقَ مِعْزَه وجَزَّ ضَأْنَه، وهى حُلاقةُ المِعْزَى.[٥]

وهذه الكلمة (حلقة) حينما عرضها صاحب تثقيف اللسان أوردها في الباب الذي عنونه بـ "باب ما خالفت العامة فيه الخاصة، وجميعهم على غلط". وحسنا فعل لأن ما قدمه هو نفسه لم يسلم من الغلط فيه وهو ما تكرر لدى صاحب إصلاح المنطق. علة ذلك أن هناك من يخطّىء فتح اللام في الكلمة ويذهبون إلى ضبطها بالسكون وحده باعتباره الصواب والحق جواز ضبط اللام هنا بالفتح كما يجوز تسكينها. يقول صاحب اللسان "وقد حكى سيبويه في الحَلْقة فتح اللام وقال

---

١ - المنصف لابن جنى – ط اولى ١٩٥٤م – ٣٠٥/٢

٢ - سورة الشورى آيه: ٤٥

٣ - سورة النمل آيه: ٤٠

٤ - تثقيف اللسان :٢٣٩

٥ - إصلاح المنطق لابن السكيت: ١٨٣

اللحيانى حَلْقة الباب وحَلَقته بإسكان اللام وفتحها. وقال كراع حَلْقة القوم وَحلَقتهم.... وحكى يونس عن أبى عمرو بن العلاء حلَقة في الواحد بالتحريك".[1]

وهكذا نرى في هذه الأمثلة التي قدمناها ممثلة لتحريك ما كان ساكن الوسط نماذج ثلاثة:

الأول: كما في الشَغَب يجوز تحريك عين الكلمة على مذهب الكوفيين لكون عين الكلمة أحد حروف الحلق وهو هنا (الغين).

الثاني: كما في طرْف هي بسكون الوسط وتحريكها يخرجها عن الصواب في بابها لأن الطرْف بمعنى العين ليس إلا بالسكون. فإن تحركت الراء تحولت إلى صيغة أخرى ومعنى آخر وبذلك يكون تحريكها في السياق لحن ينبغي التنزه عنه.

الثالث: كما في (حلقة) بسكون اللام وتحريكها دون مفاضلة فصحيح اللغة يقبل الحالتين.

---

١ - اللسان (حلق)

المخالفة

إلى جانب ظاهرة التماثل تأتى ظاهرة المخالفة التي تعالج قضية التجاور بين الأصوات وتأثير بعضها ببعض سواء أكان ذلك بين الصوامت أو الصوائت.

والمخالفة تعنى حدوث اختلاف بين الصوتين المتماثلين في الكلمة الواحدة حيث يقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين وقد دلت البحوث التي قام بها علماء الأصوات أن ظاهرة المخالفة قد شاعت في كثير من اللغات السامية وليست هذه الظاهرة إلا تطورا تاريخيا في الأصوات [١]

"والتخالف نادر بالنسبة إلى التشابه وهو نادر في اللغة العربية، بالنسبة إلى بعض اللغات السامية الباقية خصوصا الأكادية والآرامية".[٢]

وكما كان لظاهرة التماثل حضورها لدى اللغويين القدماء كان لظاهرة المخالفة حظها من الحضور والتناول يقول سيبويه: باب ما شذ فأبدل مكان اللام ياء لكراهية التضعيف. وذكر من ذلك تسريت وتظنيت وتقصيت من القصة.[٣]

وفى الصحاح "قول الفرّاء: جلمط رأسه أى حلقه والميم زائدة".[٤]

وفى المزهر"ومن المضاعف قال أبو عبيدة: العرب تقلب حروف المضاعف إلى الياء ومنه قوله تعالى "وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[٥] وهو من دسست. وقوله تعالى"لَمْ يَتَسَنَّهْ"[٦] من مسنون. وقولهم سُرِّيَّة من تسررت، وتلعَّيت من اللَّعاعة".[٧]

وفى الأمالى للقالى يقول "حسن بسن" إن لفظ بسن من البسّ وأن النون بدل من حرف التضعيف، لأن حروف التضعيف تبدل منها الياء مثل تظنَّيت وتقضَّيت وأشباههما فلما كانت النون من حروف الزيادة كما أن الياء من حروف الزيادة وكانت من حروف البدل أبدلت سينا".[٨]

وفى خصائص ابن جنى جاء قوله "باب قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف" ومنه قول العرب: "تسرَّيت من لفظ سرر، وقد أحالته الصنعة إلى لفظ سرى".[٩]

---

١ ـ الأصوات اللغوية ٢١٠
٢ ـ التطور النحوى ٣٥
٣ ـ الكتاب ٤٢٤/٤
٤ ـ الصحاح (جلط)
٥ ـ سورة الشمس آية: ٤٠
٦ ـ سورة البقرة آية: ٢٥٩
٧ ـ المزهر ١/ ٤٦٨ـ واللعاعة: الجرعة من الشراب، والكلأ الخفيف، رعى أو لم يرع
٨ ـ الأمالى ٢١٦/٢
٩ ـ الخصائص ٩١/٢

ومن الأمثلة التي أبدل فيها أحد الحرفين المضعفين راء أو لاما ما رواه ابن فارس الفرقعة: "تنقيض الأصابع وهذا مما زيدت فيه الراء وأصله فقع. وما رواه الجوهري في الصحاح (فطح) و(فرطح) ورأس مُفطَّح ورأس مفرطح أي عريض".[١]

وبعد أن عرضنا لرؤية القدماء والمحدثين لظاهرة المخالفة نعرض لبعض الحالات التي جاءت ممثلة لهذه الظاهرة في العربية المعاصرة ومن ذلك:

- قولهم: قصيت أظفارى وهى من المسموع عن العرب القدماء وذكرها ابن جني في قوله "ومثله: قصيت أظفارى وهى من لفظ قصص، وقد آل بالصنعة إلى قصي".[٢]

والذي حدث فيها من تغيير يتمثل في كون أصلها قصصت ثم أبدلوا إحدى الصادين ياء والكلمة وإن كانت موجودة في العربية المعاصرة فلها جذورها العربية ومروية عن العرب ولذلك ذهب صاحب تثقيف اللسان إلى عدها صحيحة غير ملحونة وذلك في قوله: "قصيت أظفارى"، جائز مسموع من العرب".[٣]

- ويقولون: قرنبيط وأصلة: قُنَّبيط واحدتها قُنَّبيطة

جاء في المعجم الوسيط: القُنَّبِيط: بقلة زراعية من الفصيلة الصليبية تطبخ وتؤكل، وتسمى في مصر والشام قرنبيط[٤]

والذى حدث في قُنبَّيط تغاير حيث أبدل من إحدى النونين راء، والراء أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين والتى تعامل معاملتها ومن ثم نشأ بعد الإبدال قرنبيط على لهجة الناطقين في مصر والشام على ما جاء في الوسيط

- ويقولون للشيء المنبسط مفلطح. والأصل هو مفطَّح.

جاء في الوسيط: فطَّح مبالغة في فطح يقال فطَّحَ الحديدة عَرَّضها وسَّواها.[٥]

الأصل: مفطَّح بالطاء المشددة. وتم الإبدال من أحد المثلين أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين[٦] – (ل، ن، م، ر) – وهو اللام هنا فصارت مفلطح ويقال فيها أيضا مفرطح. وأيضا في هذه الحالة تم الإبدال من أحد المثلين أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهو هنا الراء فصارت مفرطح وكلها بمعنى واحد.

- ويقولون: ضربته فقنطرته، وأصله: قطَّرته

جاء في الوسيط: تقطّر رمى بنفسه من علو. وتهيأ للقتال وتحرق له.

---

١ ـ مقاييس اللغة لابن فارس – ط عيسى الحلبى ١٣٧١هـ ـ ٥١٣/٤
٢ ـ الخصائص ٩٢/٢
٣ ـ تثقيف اللسان ٢٣١
٤ ـ الوسيط: ٧٩١/٢
٥ ـ السابق: ٧٢٠/٢
٦ ـ الأصوات اللغوية ٢٧

قطّرته: وقع التبادل بين أحد المثلين وبين النون ليتم التغاير بينهما وتصير قنطر.
والنون كما سبقت الإشارة أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهو ما يجيز إبدالها في مثل هذه الحالة.

- يقولون فرقع أصابعه، وأصله فقّع والفرقعة: تنقيض الأصابع
وفى الوسيط فقّع المفاصل: غمزها حتى تقضضت وصوتت [١]
المغايرة وقعت نتيجة التبادل بين أحد المثلين والراء، والراء أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهو ما جوز إبدالها.
والكلمة بعد ذلك من المروى المسموع عن العرب وهو ما يعنى أن الكلمة لها جذورها القديمة في العربية [٢]
- ويقولون: خربش وجهه والأصل: خَمَشَ بالميم المخففة وخَمَّش بالتشديد للتكثير خَمَّش فلانا: جرح بشرته في أى موضع من جسده.[٣]
ويمكن تفسير ذلك تبعا لقاعدة التغاير على النحو الاتى:
خَمَّش: يتم استبدال أحد الصوتين المتماثلين بصوت من أصوات اللين أو الشبيهة بأصوات اللين وهو هنا الراء فيتحول إلى (خرمش) ثم حدث إبدال آخر بين الباء والميم (إبدال تجانس حيث اتحدا مخرجا واختلفا صفة حيث الباء: حرف شفوي مجهور مرقق، والميم حرف شفوي متوسط أنفى).
وبهذا الإبدال بين الراء وأحد الميمين صارت خرمش وبإبدال الميم باء أصبحت خربش. فالتغاير هو التفسير لما حدث في الكلمة من تغيير.

نخلص بعد هذه النماذج التي وردت في العربية المعاصرة وتم تفسير ما وقع فيها من لحن أو خروج على الأصل في بابها أنه يمكن قياسها على ما يماثلها مما رواه اللغويون العرب ونقبل منها ما اعترفوا بفصاحته وصحته منها، وما جاء غير ذلك إن كان له وجه من العربية يمكن تخريجه عليه قبلناه كذلك وإن كان دون غيره في الفصاحة فلنا أن نجد له في ساحة العربية مكانا وسعة. أما ما جاء خارجا عن القياس ولم يوافق سماعا. ولم نجد له وجها فهو اللحن المقطوع به الذي يجب طرحه ونبذه وعدم التهاون في رفضه.

---

١ - الوسيط: (فقع)
٢ - مقاييس اللغة ٤/ ٥١٣
٣ - الوسيط: (خمش)

النبر:

النبر مصطلح صوتي يقصد به الضغط على صوت أو مقطع معين عند النطق به فيكتسب هذا الصوت تميزا بالعلو والارتفاع حيث يكون أوضح في السمع عند النطق به من سائر الأصوات المجاورة له.[١]

هذا الضغط يبرز الصوت وهذا البروز يتحقق عندما يكون الصوت أوضح وأطول وأعلى ومتميزا من حيث الدرجة وإذا تغير موضع النبر صحبه غالبا إطالة صوت اللين القصير [٢]، ونطق اللغة لا يكون صحيحا إلا إذا روعى فيه موضع النبر. والمرء حين ينطق بلغته يميل عادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ليجعله أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة وهذا الضغط هو الذي نسميه النبر، واللغات تختلف عادة في موضع النبر من الكلمة، منها ما يخضع لقانون خاص بمواضع النبر في كلماته كالعربية والفرنسية ومنها ما لا يكاد يخضع لقاعدة ما في هذا كالإنجليزية. فالفرنسى يضغط عادة على المقطع الأخير من كل كلمة.[٣]

وليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر في اللغة العربية كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية الأولى، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء. أمّا كما ينطق بها القراء الآن في مصر فلها قانون تخضع له ولا تكاد تشذ عنه ويمكن أن يلخص هذا القانون فيما يلى:

لمعرفة موضع النبر في الكلمة العربية ينظر أولا إلى المقطع الأخير فإذا كان من النوعين الرابع = صامت + صائت طويل + صامت (بانْ).

أو الخامس = صامت + صائت قصير + صامتان (بُنّ).

كان هو موضع النبر. وإلّا نظر إلى المقطع الذي قبل الأخير. فإن كان من النوع الثاني = صامت + صائت طويل (با)، أو الثالث = صامت + صائت قصير + صامت (بَلْ).

حكمنا بأنه موضع النبر. أما إذا كان من النوع الأول =صامت+ صائت قصير (بَ)

نظر إلى ما قبله فإن كان مثله أي من النوع الأول أيضا كان النبر على المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر إلا في حالة واحدة وهى أن تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخير من النوع الأول.[٤]

وبالرجوع إلى بعض الكلمات المستعملة في العربية المعاصرة نستطيع أن نفسر ما حدث فيها من لحن وعدولها عن الفصاحة بسبب النبر وذلك على النحو التالي:

---

١ - الأصوات اللغوية ١٦٩ – مناهج البحث في اللغة –د. تمام حسان ١٩٤ – التطور النحوي ٧١ - علم اللغة د.السعران ٢٠٧ – في اللهجات ١٤٥

٢ - علم اللغة ٢١٠

٣ - الأصوات اللغوية١٧٠

٤ - الأصوات اللغوية١٧٢

يقولون: دِيَّة – نَدِيَّة – مُغَنِّيَّة – مُستَرْخِيَّة – مُستوِيَّة – مُلتوِيَّة – مُربِيَّة
وهذه الكلمات في الفصحى بالتخفيف لا التشديد ولتفسير ما حدث فيها حتى نطقت بالتشديد ننظر في بنية الكلمة في الفصحى وبنيتها في حالة اللحن وهو ما يكشف عن أسباب هذا التغير.
فمثلا: دِيَةٌ – تتضمن المقاطع الصوتية الآتية:
دِ + يَ + ُ تنْ
صامت + صائت قصِير/ صامت + صائت قصِير/ صامت + صائت قصِير + صامت.
يقع النبر على المقطع الأول (دِ) وبعد حذف التنوين وتسكين الآخر تحولت الكلمة إلى دِيَةْ: تتضمن المقاطع الصوتية الآتية
دِ + يَهْ
صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير + صامت
ويبقى النبر في موضعه على المقطع (دِ) وتقصير الكلمة أثّر في طول الصوت المنبور وهو ما أدّى إلى تحول كسرة الدال إلى ياء فالتقت بالياء التالية لها ووقع الإدغام بينهما وهو ما ظهر في تشديد الياء ونشوءِ دِيَّة المشددة
وبالمثل كلمة: مغنّيَة: تتكون من المقاطع
مُ + غَنْ + نِ +يَ + تُن
صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير + صامت / صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصير + صامت.
يقع النبر على المقطع (غَنْ) لأن المقطع قبل الأخير من النوع الأول(يَ)
والسابق له أيضا من النوع الأول كذلك (نِ) فيكون النبر حينئذ على (غَنْ)
وبعد حذف التنوين وسكون الآخر تتحول الكلمة إلى مُغَنِّيَةْ = مُ + غَنْ + نِ + يَه
ونتيجة نقص مقاطع الكلمة انتقل موضع النبر إلى المقطع قبل الأخير (نِ) وهو ما أدى بدوره إلى إطالة الصائت القصير (الكسرة) فنشأت الياء التي أدغمت في الياء التالية لها وهو ما أدى إلى التشديد فكانت مُغَنيَّة بالتشديد
وبالمثل في مُستَرخِيَة تشتمل المقاطع التالية
مُسْ + َ ترْ +خِ + يَ + ُ تنْ
صامت + صائت قصِير + صامت /صامت + صائت قصِير + صامت/ صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير + صامت

يقع النبر على (تَرْ) وبحذف التنوين وتسكين الكلمة تتحول إلى مسترخية = مُسْ + تَرْ +خِ + يه ونتيجة نقص مقاطع الكلمة ينتقل موضع النبر إلى المقطع قبل الأخير (خِ)

ونتيجة لوقوع النبر عليه يطول الصائت القصير (الكسرة) فتنتج الياء التي تدغم بدورها في الياء التي تليها وهو ما يؤدى إلى ظهور التشديد. ما يؤدى إلى ظهور الصيغة المشددة (مُستَرخِيَّة)

وبالمثل في – مُرَبِيَةٌ تحتوي المقاطع التالية

مُ + رَبْ +بِ +يَ + ثُنْ

صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير + صامت / صامت + صائت قصِير / صامت + صائت قصِير /صامت + صائت قصِير + صامت

يقع النبر على (رَبْ). وبحذف التنوين وتسكين الكلمة تتحول إلى مُرَبِّيَةْ = مُ + رَبْ + بِ + يَهْ.

ونتيجة نقص مقاطع الكلمة ينتقل موضع النبر إلى المقطع قبل الأخير (بِ)

ويؤدى ذلك إلى إطالة الصائت القصير (الكسرة) فتنشأ الياء التي تدغم بدورها في الياء التي تليها فيكون التشديد وتتحول الكلمة إلى مُرَبيَّة بتشديد ما قبل الآخر.

وبهذا يكون النبر قد قدم تفسيرا لحالة لغوية معاصرة خالفت ما عليه الفصحى وأدى بها إلى اللحن الذي حرمها من الفصاحة اللغوية ما يعنى ضرورة مراعاة الأداء الصوتي الصحيح حتى نحفظ على اللغة: أصواتها وأبنيتها ودلالاتها بعيدا عن تغول اللحن وفساده.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقدم تفسيرا صوتيا لبعض مظاهر اللحن في اللغة العربية المعاصرة وذلك من خلال عرض بعض النماذج وإخضاعها للتحليل وقد بدأت خطة البحث بتقديم تحديد لمفهوم اللحن لغة واصطلاحا وتحديد المعنى الذي قصدناه في هذه الدراسة وهو يعنى الخطأ في اللغة: أصواتها وصرفها ونحوها ودلالاتها ورجحت أن استخدام لفظ اللحن بهذه الدلالة قد بدأ منذ الجاهلية وصدر الإسلام ولم يتأخر إلى نهاية القرن الأول الهجري كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

وكان ترجيحنا لذلك معتمدا على شواهد عديدة عرضنا لها في حينها وبينت كذلك أن حصر مظاهر لحن العرب في (الإعراب) وحده غير دقيق فقد شمل اللحن الإعراب والأصوات والمعاني ولكن لكون الإعراب له الحظوة والتقدمة لديهم فقد راعهم ما يقع منه مما صرفهم عن الاهتمام بما عداه دون أن يكون ذلك دليلا على عدم مظاهر اللحن الأخرى، وهو ما ينسحب بدوره على مظاهر اللحن في لغة الموالى والمتعربين فلم يقتصر لحنهم على أصوات اللغة وأدائها فحسب بل شمل كل مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وإن كان الجانب الصوتي قد مثل أبرز مشاهد اللحن لديهم وبخاصة عند أدائهم الأصوات التي ليس لها نظائر في لغتهم.

ثم انتقل البحث إلى تناول قضية مقياس الفصاحة وصلتها بالمستوى الصوابي الذي يحدد معيار الخطأ والصواب في اللغة وقد اتضح مدى التفاوت بين اللغويين في تحديد هذا المعيار أو القياس. بين متشدد لا يقبل بغير الأفصح ومتساهل يقبل كل ما تكلم به العرب، وكان الاتجاه الذي ارتضيناه هو قبول كل ما وافق القياس والسماع العربيين أو جاءت به رواية موثقة أو شيئا سبق إليه عربى فصيح غير متهم وقد فضلت هذا النهج رغبة في تخفيف وطأة القيود المتشددة وأن يكون ذلك بمثابة محاولة جادة في تقريب اللغة من أبنائها عن طريق التيسير في قبول كل استعمال لغوى ما دام يحفظ على اللغة صحتها وفصاحتها.

ثم كان التناول لبعض مظاهر اللحن في العربية المعاصرة التي حاولنا تفسيرها تفسيرا صوتيا يكشف عن أسباب انحراف هذه الحالات مما أخرجها على صحيح اللغة وكانت البداية مع الإبدال أحد مظاهر التطور الصوتي في اللغة. ومن خلال عرض النماذج التي قدمناها وجدنا أن هناك حالات من الإبدال اللغوي فد انعقدت فيها الصلة الصوتية بين الأصوات المتبادلة وهو ما أجاز وقوعه ومنها ما لم تنعقد الصلة فيه بين الأصوات المتبادلة وهو ما عرفناه بإبدال التباعد، وقد اتضح أن الإبدال اللغوي يقع في الصوامت كما يقع في الصوائت.

ومن خلال تناول الظاهرة اتضح إصدار بعض الأحكام من قبل بعض اللغويين على بعض حالات رميت باللحن ولكن اتضح أن لها نظائر في العربية بل لها جذورها التي تؤكد رسوخها في العربية،

وهو ما تمثل في أكثر من حالة كما في كلمات أسقطت منها الهمزة ورميت باللحن بينما أثبتنا أن لها نظائر عديدة في العربية الفصحى وأن هذا المسلك في حذف الهمزة هو أحد الطرق التي عالج بها القدماء صوت الهمزة للتخلص منه بالحذف أو الإبدال أو التسهيل. ولم يكن فيها خروج على الفصاحة اللغوية بل وجدنا بعض هذه الكلمات غير المهموزة التي رميت باللحن كانت هي الصورة الأفصح بل الوحيدة في بابها كما رأينا في كلمة (مساوي) والتي نص الوسيط فيها بقوله (لا تهمز). كذلك كان لافتا التعجل في القول بخطأ كلمة من الكلمات ثم يتضح أن هذا الاتهام محض خيال، وجدنا ذلك في استعمال كلمات مثل (الزمرد) – (برد قارص)– (فقوس) – (فقس) – (السنجة) وكلها كلمات تم وصمها باللحن وقد أثبتنا أنها صحيحة فصيحة لا خطأ فيها.

وكان من الظواهر التي مثلت ظاهرة معيبة مع تفشيها ما رأيناه عند دراسة التماثل الصوتي بين الصوائت مع الفعل الثلاثي وبخاصة ما جاء منه في صيغة الماضي على (فَعِل) وليس صيغة المضارع التي كان الظن أنها وحدها التي تمثل عبئا ثقيلا في تعامل المعاصرين بالفصحى فقد اتسعت دائرة اللحن في هذه الحالة بما يستدعى مضاعفة الجهد في الحث على تجنب مثل هذه الأخطاء والعناية بالاستعمال اللغوي الصحيح الفصيح والإصرار على استهجان كل خطأ وعدم القبول به أو التجاوز معه.

كذلك وجدنا في حالات تحريك الكلمات الثلاثية ساكنة الوسط أن هذا التحريك لم يكن كله لحن فمنه ما جاء لحنا خالصا لا عذر معه أو فيه، ومنه ما مثّل حالة جواز يمكن الأخذ به وإن كان دون الأفصح. ومنه ما كان استعماله في الحالتين التحريك والتسكين دون فرق، على نحو ما سبق أن عرضنا له كما في (الطَرَف – الشَغَب– حلقة).

وهو ما يؤكد ضرورة الدقة قبل إصدار الأحكام بالخطأ أو الصواب.

كذلك كان الاعتماد على النبر في تفسير بعض الحالات التي لحقها اللحن وأخرجها عن سياق الفصحى على النحو الذي عرضنا له فيما سبق.

وهو ما يدعو إلى ضرورة مراعاة النبر في استعمالنا اللغوي لما يترتب عليه من إخلال ببينة الكلمة يخرج بها من دائرة الفصاحة والصواب اللغويين إلى دائرة اللحن المرفوض.

ونخلص إلى أن ظاهرة اللحن إحدى الظواهر اللغوية المهمة التي ينبغي أن تحظى بعناية واهتمام كبيرين لما لها من أثر مدمر على اللغة العربية سواء على المدى القريب أو المدى البعيد، وهو ما يدعونا إلى ضرورة مواجهتها بلا كلل أو إبطاء ويأتي في مقدمة وسائل هذه المواجهة ما يلي:

- ضرورة التنبيه إلى أى صورة من صور اللحن تتبدى في اللغة والعمل على محاصرتها والتخلص منها والتأكيد على رفضها وعدم السماح بالتجاوز في التعامل بها.

- ينبغي أن يكون لمجمع اللغة العربية بمصر دور نافذ ولقراراته وتوصياته قوة الإلزام وعدم الخروج عليها ألبتة فهذه القرارات والتوصيات لها كبير الأثر في التيسير والتحديث ومواكبة العصر دون التفريط في الفصاحة اللغوية وأيضا دون التشدد الذي قد يحول بينها وبين أهلها.
- إذا كان موقفنا هو الرفض التام لأي استخدام لغوى ملحون فإننا نرفض كذلك المغالاة والتسرع في إطلاق أحكام غير صحيحة على كلمات بدعوى أنها ملحونة بينما هي فصيحة صحيحة ولكن عدم العلم بحقيقة ذلك وعدم التثبث والدقة قبل إطلاق الأحكام هو ما يوقع في هذا الخطأ الجسيم وهو خطأ فادح لأنه يحرم العربية من كلمات تزيد من ثروتها اللفظية وتساعد في نموها وتطورها.
- الدعوة إلى ضرورة أن تلتزم البرامج المسموعة في الإذاعتين المسموعة والمرئية في برامجهما الجادة – على الأقل – اللغة الفصيحة وهو أقل مستوى يمكن أن يكون مقبولا مع عدم السماح بالعبث بهذه القاعدة تحت أي مسمى أو مبرر.
- كذلك يجب أن يلتزم كتاب المقالات في الصحف والمجلات الفصاحة اللغوية في كتاباتهم وعدم الاستهانة بها أو الحط من شأنها بنبذها واستعمال اللهجة العامية وإلا فإن النتيجة في نهاية المضاف ستؤدى إلى استشراء آفة اللحن بما يحول بيننا وبين التخلص منه أو القضاء عليه.

وأخيرا أرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع لبنة من لبنات مقاومة هذه الظاهرة المنكرة ومحاولة مخلصة لتقريب العربية من أبنائها وإبطال ادعاء صعوبة العربية ناهيك عن إتقانها فالحقيقة تنبئ بغير ذلك.

وصدق الله العظيم في قوله الكريم "فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

والله أدعو أن ينفع بهذا الذي قدمت ويفيد إنه نعم المولى ونعم النصير.

المراجع

١- أساس البلاغة – أبو القاسم جارالله محمود الزمخشري – ت: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٩٨م

٢- الاشتقاق – عبد الله أمين – مكتبة الخانجى – ط٢ – ٢٠٠٠م – ١٤٢٠هـ

٣- إصلاح المنطق – لابن السكيت (٢٤٤-١٨٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر – عبد السلام هارون – دار المعارف مصر – ط٣ – ١٩٧٠م

٤- الأصوات اللغوية – د. إبراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية – ط٥ – ١٩٧٩م

٥- الأضداد في اللغة – محمد بن القاسم محمد الأنبارى – تحقيق الشيخ أحمد الشنقيطى – المطبعة الحسينية

٦- الاقتراح في علم أصول النحو – جلال الدين السيوطي – تحقيق د.أحمد محمد قاسم ط١- القاهرة ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م – مطبعة السعادة

٧- الأمالى للقالى – أبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادي – القاهرة ١٩٢٦م
طبعة منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م

٨- البيان والتبيين – لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق. عبد السلام هارون – مكتبة الخانجى – ط٤

٩- تثقيف اللسان وتلقيح الجَنان – لابن مَكى الصقلى (ت ٥٠١هـ – ١١٠٧م) تحقيق د. عبد العزيز مطر – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٦م

١٠- التطور النحوي للغة العربية – برجشتراسر – مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٢م

١١- جمهرة أنساب العرب – لأبى محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤م – ٤٥٦هـ) – تحقيق. عبد السلام هارون – دار المعارف مصر – ط٥ – ١٩٨٢م.

١٢- الحيوان – لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق. عبد السلام هارون – مكتبة الخانجى – ط٢ – ١٩٦٦م

١٣- خزانة الأدب – لعبد القادر بن عمر البغدادي – طبعة بولاق -١٢٩٩هـ

١٤- الخصائص- لأبى الفتح عثمان بن جني – تحقيق محمد على النجار – دار الكتب – ١٢٧١هـ – ١٩٥٢م

١٥- دراسات في فقه اللغة – د. صبحي الصالح – الطبعة التاسعة – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨١م

١٦- سر الصناعة – لأبى الفتح عثمان بن جني – طبعة الحلبي – ط١ – تحقيق مصطفى السقا – محمد الزفزاف – إبراهيم مصطفى – عبد الله أمين – الجزء الأول
١٧- شرح المفصل – لابن يعيش النحوي (ت ٦٤٣هـ) – مكتبة المتنبي بالقاهرة
١٨- الشعر والشعراء – لابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر – دار التراث العربي
١٩- الصاحب – لابن فارس أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥هـ) تحقيق السيد أحمد صقر – طبعة الحلبي ١٩٧٧م
٢٠- الصحاح – للجوهرى – بولاق ١٢٨٢هـ
٢١- طبقات النحويين واللغويين – لأبى بكر محمد بن الحسن الزُّبيدى الأندلسي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف مصر – ط٢
٢٢- العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – يوهان فك – ترجمة د. رمضان عبد التواب –مكتبة الخانجى – ١٩٨٠م
٢٣- العربية الصحيحة – د. أحمد مختار عمر – عالم الكتب – ط١ – ١٩٨١م
٢٤- العقد الفريد – لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي – ت: أحمد أمين – إبراهيم الإبيارى – الذخائر ١١٢
٢٥- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي – د. محمود السعران- ط١- دار المعارف
٢٦- عيون الأخبار – لابن قتيبة – الهيئة العامة للكتاب – ١٣٤٨هـ – ١٩٣٠م
٢٧- في اللهجات العربية – د. إبراهيم أنيس –ط٤- الأنجلو المصرية – ١٩٧٣م
٢٨- القاموس المحيط – للفيروزآبادى – ط٢ – مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٥٢م
٢٩- الكتاب – لأبى بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر سيبويه – تحقيق. عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣٠- لسان العرب – لابن منظور – المطبعة الأميرية –١٣٠٠هـ
٣١- اللغة العربية بين المعيارية والوصفية – د. تمام حسان – دار الثقافة بالمغرب ١٩٨٠م
٣٢- اللغة العربية معناها ومبناها – د. تمام حسان- الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩م
٣٣- اللغة – فندريس – ترجمة.عبد الحميد الدواخلى – محمد القصاص – الأنجلو المصرية
٣٤- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لأبى الفتح عثمان ابن جنى – تحقيق على النجدي ناصف – عبد الحليم النجار – عبد الفتاح شلبي – ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

٣٥- المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية – د. عبد المجيد عابدين – دار الطباعة الحديثة
٣٦- مراتب النحويين – لأبى الطيب اللغوي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار نهضة مصر
٣٧- المزهر في علوم اللغة وأنواعها – للسيوطي – تحقيق محمد أحمد جاد المولى – على محمد البجاوى – طبعة الحلبي
٣٨- المستصفى من علم الأصول – لأبى حامد الغزالي – المطبعة الأميرية ١٣٢٢هـ
٣٩- المصباح المنير – للفيومي – المكتبة العلمية بلبنان
٤٠- المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بمصر – الطبعة الثالثة
٤١- مقاييس اللغة – لأحمد بن فارس – تحقيق عبد السلام هارون – ط. عيسي الحلبي ١٣٧١هـ – ١٣٦٦م
٤٢- الملاحن – لابن دريد – المطبعة السلفية – ١٣٤٧هـ
٤٣- من أسرار اللغة – د. إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية –ط٦ – ١٩٧٨م
٤٤- من أصول اللهجات العربية في السودان – د. عبد المجيد عابدين
٤٥- مناهج البحث في اللغة – د. تمام حسان – دار الثقافة بالدار البيضاء –١٤٠٠هـ ١٩٧٩م
٤٦- المنصف- لأبى الفتح عثمان بن جني – تحقيق :إبراهيم مصطفى – عبد الله أمين – طبعة الحلبي – ١٣٧٩هـ.